



مراجعات

شوال 1438 هـ – يونيو 2017م

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من الأطروحات التي أنجزها العمانيون في الخارج دراسة بعنوان «تكامُل البيانات المكانية لإدارة مصائد الأسماك البحرية في عُمان»، قدمها يونس بن خلفان الأخرمي لقسم الجغرافيا بجامعة لستر في بريطانيا للحصول على الدكتوراه سنة ٢٠٠٠.

تتكون الدراسة من ثمانية فصول، ويذكر الأخرمي في ملخصها أن البحوث السابقة قد أشارت إلى تزايد الحاجة إلى استخدام نظم المعلومات الجغرافية في إدارة الموارد البيئية والطبيعية؛ فالغابات، والمناطق الساحلية، والزراعة، واستعمال الأرض بشكل عام من بين المجالات التي لعبت فيها نظم المعلومات الجغرافية دوراً أساسياً في التخطيط والإدارة. أما مصائد الأسماك البحرية، وهي مجال آخر لاستغلال الموارد الطبيعية، فإن نظم المعلومات الجغرافية لم تُوظف فيها بعد على نحو كامل. وعليه، فإن الأخرمي في دراسته هذه تطرق لتطبيق تقنيات نظم المعلومات الجغرافية على مصائد الأسماك البحرية.

في هذا العمل استخدم الباحث البيانات التجارية للصيد؛ لتوضيح التسهيلات التي قد توفرها نظم المعلومات الجغرافية لإدارة مصائد الأسماك، وعلى وجه التحديد ناقش ثلاثة أنواع مختلفة من بيانات الصيد في عمان (تختلف من حيث الشكل الأصلي، وطريقة الجمع، والبصمة الجغرافية)، كما ناقش جمع البيانات، ومعالجتها، وتصفيتها، وإعدادها لتدخل في قاعدة بيانات ارتباطية. ويرى الباحث أن التكامل المكاني للبيانات، رغم التحديات المرتبطة، يمثل خطوة أساسية. وقد استخدم لحل تلك المشكلة طريقتين من تكامل البيانات: تحديد المنطقة والمدى؛ فقد وظف كليهما لعرض البيانات على مستويات مختلفة من الإدارة واتخاذ القرار.

كما أن الباحث استخدم تصورات بديلة من نظم المعلومات الجغرافية بما في ذلك توزيع المصايد الكلية، والصيد حسب الجهد والمساحة، وكثافة الصيد، والتحليل المكاني والزمني. ويتوظيف القدرة التحليلية لنظام المعلومات الجغرافية تمكن الباحث من عرض النتائج المتعلقة بالعناصر الآتية: مناطق الصيد المفضلة، والمصيد المتوقع لكل منطقة، ومواطن الأسماك عالية الجودة، والمناطق غير المستغلة، والمناطق المشتبه بتعرضها للصيد الجائر. كما أن الباحث ناقش أيضاً البيانات المائية والبيولوجية (البيانات المتعلقة بالبيئة البحرية) مثل درجة حرارة سطح البحر، والأكسجين الذائب، والملوحة، و تقرير عام ١٩٩٥ حول الكتل الحيوية للعوالق الحيوانية المتعلقة بالصيد.

وقد توصل الباحث إلى أن تركيز الصيد يكون أكثر داخل مناطق الجرف القاري من المياه العميقة؛ لكونها مناطق تتميز بإنتاجية الأسماك الكبيرة ووفرة العوالق الحيوانية. وقد وجد أيضاً أن الأسماك السطحية تتوفر بكثافة أكبر في الجزء الشمالي من المياه العُمانية (خليج عُمان) بينما تتجمع الأسماك القاعية بشكل أكثر في الجزء الجنوبي من البلاد (بحر العرب). وقد وجد أيضاً أن مناطق مختلفة في عُمان، رغم أنها ذات صيد كثيف ومستمر على مر السنين، فإنه بشكل عام لا يوجد دليل على تعرضها للصيد الجائر، كما أن بعض المناطق لم تكن تستخدم بشكل كامل على الرغم من أن هذه الدراسة اكتشفت أنها تتميز باحتوائية توافر كميات كبيرة من الأسماك.

hilalalhajri@hotmail.com



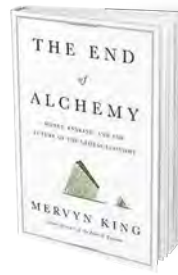
• «كلمات ربما تتوق النفس إلى سماعها»
• جونج هي جيه



• «لا وجود لشمال واحد»
• مجموعة مؤلفين



• «إنجيل الطفولة السرياني»
• جوهاني سانتامبروجيو



• «نهاية الخيمياء»
• ميرفن كينج



• «الإصلاح الفاشل»
• محمد سمير مرتضى



• «إبادات جماعية»
• كليم



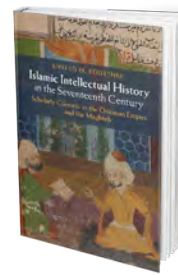
• «العصا الغليظة»
• إيوت كوهين



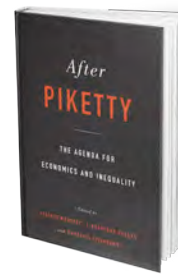
• «معاناة العلم»
• ليو كلاين



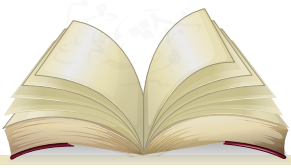
• «مع الهجرة»
• فرانسوا هيران



• «دليل أكسفورد»
• خالد الرويهب وزاينته شميدتكه



• «ما بعد بيكيتي»
• مجموعة مؤلفين



«إنجيل الطفولة السرياني» لجوفاني سانتامبروجيو

عز الدين عناية *

يُعدُّ أبرز إنجاز لمدرسة النقد الإنجيلي الحديث - التي انطلقت مع ريتشارد سيمون (١٦٣٨-١٧١٢ م)، وهرمان صامويل ريماروس (١٦٩٤-١٧٦٨)، ويوهان دافيد ميخائيليس (١٧١٧-١٧٩١) - كشف الإسهام البشري في صياغة الأناجيل والرسائل ونزع الطابع القداسي الوهمي عنهما. ولكن ينبغي أن نعي أن ما أثبتته العلماء، عبر التمهيد والتدقيق والمراجعة، ليس ما تقر به الكنيسة، وهو ما خلف تضاربا بين المنظور العلمي والمنظور الكنسي.

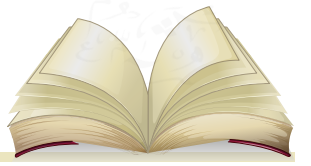
كتاب «إنجيل الطفولة السرياني» الذي تناوله بالعرض، والذي يُرجح أن أصله يعود إلى القرنين السادس والسابع، نسخته المعروفة هي النسخة العربية المنقولة عن أصول سريانية دُونت في أواخر القرن الثاني عشر، وقد تم اكتشافها خلال العام ١٩٦٧ من قبل المستشرق الألماني هنري سيك. لذلك عادة ما يسمى هذا الإنجيل بـ «إنجيل الطفولة السرياني»، أو «إنجيل الطفولة العربي». والكتاب الذي يعالج هذا السفر يتناول مسألة إشكالية في الدراسات النقدية الإنجيلية، تتمثل في دواعي إضفاء المشروعية على بعض الأسفار وسحبها من غيرها. حيث يعيدنا الكتاب الصادر بالإيطالية خلال العام المنقضي، مع صغر حجمه، إلى اللحظات التأسيسية المبكرة في الدين المسيحي، وإلى الأوضاع الحرجة بشأن مزاعم اكتمال سلسلة الأسفار المكونة للعهد الجديد وعددها الحالي ٢٧ سفرا، والمروجة من قبل مجامع الكنيسة وبابواتها. فهل الأسفار المعتمدة اليوم هي بالفعل متضمنة لتعاليم المسيح - عليه السلام - أم هي رواية من جملة روايات عدة أملتها خيارات لاهوتية ودواع ثقافية وإملاءات سياسية؟

ومن جانب آخر، يستعرض جوفاني سانتامبروجيو الأسفار «المنحولة»؛ مثل: الإنجيل بحسب العبرانيين، وإنجيل المصريين، وإنجيل بطرس، وإنجيل مرقيون، وإنجيل توما، وإنجيل الطفولة لتوما، وقصة يوسف النجار، وإنجيل برنابا، ناهيك عن أسفار أخرى مثل أعمال بطرس، وأعمال أندراوس، وأعمال توما، وإنجيل الطفولة العربي، مبرزا مدى قربها من مضامين الأناجيل «القانونية» التي حظيت بقبول المؤسسة الدينية. ولتسائل أن يسأل: ما السر وراء هذه الكثرة في الأسفار المقدسة قبل أن ينزل قرار الفرز؟ البين أن تقليد الكتابة الروحية خلال القرون المسيحية الأولى قد شاع في فلسطين وما جاورها، وقد تميز بطابع تعليمي عرفاني لا يزال البحث التاريخي الراهن يميظ اللثام عن خباياه من حين إلى آخر، أبرز ذلك اكتشاف ٥٢ مخطوطة محفوظة في جرار، خلال العام ١٩٤٥، في نجع حمادي بمصر، ضمت وثائق تعود إلى بداية القرن الرابع الميلادي؛ من بينها إنجيل توما وإنجيل فيليبس. وكذلك اكتشاف لفائف البحر الميت التي تعود إلى الحقبة المتراوحة بين القرن الثاني قبل الميلاد ومنتصف القرن الأول الميلادي، فضلا عن الإنجيل المنسوب للحواري يهوذا سمعان الإسخريوطي (خائن المسيح كما يُعرف في الأوساط المسيحية) المكتشف أخيرا وقد عُثر عليه شظايا بني مزار بالمنيا بمصر عام ١٩٧٠، تولى دراستها فريق مكون من تيم جول وماس سبيكترو وستيفن إيمل. حيث يشير تحليل البرديات المدون

تحتكر رمزيته. وقد خلف ذلك المسار، من الشفهي إلى المدون، تراثا إنجيليا متنوعا عُرف بالأدب الإنجيلي: قسّم فيه حظي بـ «صفة القانونية»، أي المشروعية، وقسّم وُسّم بـ «سمة الانتحال» أي الوضع، خضعت فيهما عملية التصنيف إلى عوامل عقديّة وثقافية وأيديولوجية متداخلة. وللتوضيح عبارة «المنحولة» هي اللفظة العربية المستعملة مقابل اللفظة اللاتينية «أبوكريفية» في نعت الأسفار غير المعترف بها، والتي تعني في الأصل «المخفية» وليس «المنتحلة» أو «المنحولة». إذ عادة ما حامت ثلاثة شكوك حول هذا الصنف من الأدب: الجهل بالمؤلف والجهل بتاريخ التدوين والجهل بمكان التدوين. ويبيّن مُعد الكتاب جوفاني سانتامبروجيو أن جذور أزمة «القانوني» و«المنتحل»، أو إضفاء المشروعية من عدمها، هي عائدة بالأساس إلى تأخر التدوين. فكان من الطبيعي أن يتداخل الإلهي بالبشري في الذاكرة الجماعية، وأن تتمازج الأخيولة والأمثلة والأرجوزة بالمأثور النبوي والوحي الإلهي. وقد وصف إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب) هذه الحالة التي أملت بالعهدين، القديم والجديد.. قائلا: كانت العقلية السامية منذ سالف أزمنتها تميل إلى قول الحكم وإرسال الأمثال؛ لأنها تمتاز في كل أطوارها بالذكاء والفظنة. وقد كانت هذه الحكم تجري بين طبقات الشعب وتنتقل بين أفرادها يسمعها الصغير من الكبير، ويتعلمها الأبناء من أفواه الآباء، إلى أن جُمع عدد وافر منها في الأسفار المقدسة (تاريخ اللغات السامية، ١٩٢٩).

يتوزع المؤلف الإيطالي - الذي أعده جوفاني سانتامبروجيو - على قسمين؛ الأول: يعرض فيه رأيه في الكتابات «الأبوكريفية/المنحولة»، والثاني: يتناول فيه فحوى إنجيل الطفولة من حيث مدى توافقه مع الأناجيل السائدة أو تعارضه. وفي القسم الأول الذي يحوز الجانب الأكبر من الكتاب يستعيد جوفاني سانتامبروجيو نقاطا رئيسية في تشكل الديانة المسيحية؛ فالإنجيل الذي أتى به المسيح (ع) لم يُدون في عهده، وقد شهد كغيره من الأسفار المقدسة السالفة رحلة شفهيّة ليست بالقصيرة، مثلت المعين للأناجيل الأربعة السائدة (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) فضلا عما نُسب لمن أطلق عليهم الرسل من أعمال ورسائل، وإن لم ير أصحابها المسيح (ع) ولم يجالوه. وبين رحيل النبي وتدوين نصه متسع من الزمن، قد يطول ويقصر بحسب الظروف. إذ يذهب الدارسون إلى أن إنجيل مرقس قد دُون بين عامي ٦٥ و٧٠ م، وإنجيل متى ما بين ٧٠ و٨٠ م، وإنجيل لوقا بين ٨٠ و٨٥ م، أما إنجيل يوحنا، فقد تم الانتهاء من تدوينه حوالي سنة ١٠٠ م.

ما يُنبئ أن التدوين قد انطلق مع الجيلين الثاني والثالث من أتباع المسيح، وألا وجود لشهود عيان بين من كتبوا الأناجيل الشائعة اليوم، كما أن كتبها لا يرتقون إلى درجة الحواريين ولا إلى مصاف الأتباع، وأقصى ما يمكن نعتهم به أتباع التابعين. في ظرف بدا فيه التحول بالنص المقدس من الشفهي إلى المدون تعبيرا عن مسعى للتحول من مشاعية الإرث الكتابي إلى توكيل صفوة بأمره،



من أناجيل ورسائل، كتبها الله عبر كتبة بشر. لذلك يسود اعتقاد أن النص مشترك البناء، بين ملهم إلهي ومحرر بشري، توسط بينهما الروح القدس، صاغه المدون بأسلوبه ولغته وتعبيره. وقل من المسيحيين من يعتقد أن النص موحى مبنى ومعنى، إلا بعض النحل الأصولية البروتستانتية المغالية في أمريكا. فقد صار ذلك من الخرافات التي لا يصدقها طالب مبتدئ في الدراسات الدينية المقارنة.

كان القديس أوغسطين (354-430م) قد أشار في مؤلفه (De consensu evangelistarum) (400م)، إلى أن صياغة الأناجيل تعكس في مجملها ذكريات عامة، أكثر من كونها نظاما تاريخيا متناسقا وصارما، وأن أقوال المسيح ليست منقولة حرفيا دائما، بل صيغت بعناية لحفظ المعنى لا غير. وما تعود إليه الكنيسة اليوم من نص مقدس، فهو ترجمة يونانية أثبتت قانونيتها بعد مداورات جرت عقب المئوية الثالثة بعد الميلاد، وأن الترجمات الحديثة المتداولة بين الناس متحدرة من النص اليوناني وليس لها صلة بلسان المسيح وكلامه.

صحيح أن العهد الجديد هو مدونة من جملة مدونات إنجيلية عديدة، مر بعدد التطورات تعلقت بمتمته، ولم يرس على شكل قار سوى في مجمع ترنت 1545م؛ حيث حددت الكنيسة الكاثوليكية جردا نهائيا للكتب المقبولة من المرفوضة وأطلقت عليها اسم القانونية. لكن اليوم تحوم ريبية حول مقول المؤسسة وما أقرته، ومن هذا الباب جاء رد الاعتبار للمهمش، وجد دافعا في النزوع إلى ما هو غرائبي والميل إلى ما هو غنوصي. وأكثر ما يقلق «الأرثوذكسية» التي دعمت النص المشروع، هو عودة ما طمسته الرقابة وإشارة تساؤلات حول النصوص القانونية، من حيث روايتها للحدث المسيحي المبكر. فقد كان الغنوصيون والنحلون معروفين فقط من روايات خصومهم، ولكن بعد اكتشافات مدونات نجع حمادي، ولفائف البحر الميت، ووثائق المنيا، بدأت المسائل تُطرح بشكل مغاير.

وفي خضم الجدل المتجدد في المسيحية بشأن «القانوني» و«النحول»، يبقى الغائب الأبرز في تاريخ التدوين الكتابي هو إنجيل المسيح (ع).

- الكتاب: «إنجيل الطفولة السرياني».

- المؤلف: جوفاني سانتامبروجيو.

- الناشر: منشورات مارييتي (جنوة-إيطاليا).

٢٠١٦م، باللغة الإيطالية.

- عدد الصفحات: ٧٨ صفحة.

* أستاذ تونسي بجامعة روما



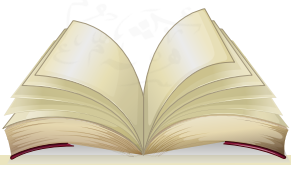
فكما يورد الكتاب يُنسب إلى البابا جلاسيوس (القرن الخامس) ضبط قائمة ال٩٥ عنوانا التي أمر بتجنبها بوصفها نصوص هرطقة. مع ذلك بقيت تلك النصوص متداولة بين شرائح واسعة لما تلبيه من شغف لدى الناس. كما يُنسب لمايكل نيادر سورافينايس أول تجميع للأعمال الأبوكريفية في بازل (سنة ١٥٦٤)، تبعته محاولة أخرى أكثر انتظاما ليوهان ألبار فابريسيوس بعنوان: Codex apocryphus Novi Testamenti والمتمتع في مختلف الأناجيل -«القانونية» منها و«المنحولة»- يلحظ تمحورها في مضامينها حول شخص المسيح (ع)، لذلك تميز جلها بالإجابة عن سؤالي: من المسيح؟ ومن أين جاء؟ مع ذلك بقيت منطقة ظل أو فراغات بارزة في تلك الأناجيل تمتد على مرحلة الطفولة المبكرة لعيسى (ع)، كان إنجيل الطفولة أبرز المنشغلين بها، حيث تدور أحداث الإصحاحات الأولى في هذا الإنجيل حول المغارة لتتحول الإصحاحات اللاحقة إلى كشف للقدرات الخارقة للمسيح وهو في المهد. كما نلحظ تركيزا في النص على سيكولوجية العذراء مبرزا مدون السفر السموالروحي لمريم، ولعل ذلك ما مهد للانحراف نحو ما يعرف بالطقس المريمي في المسيحية الراهنة. فضلا عن أن الأناجيل الأبوكريفية تفوق القانونية في توضيح بعض النقاط الغامضة أو الواردة في القانونية مقتضية. كما ساهمت الأبوكريفية، وإنجيل الطفولة السرياني إحداها، في ترسيخ معتقدات على غرار طقس عبادة العذراء مريم، منذ القرن الخامس الميلادي، في حين لم تقر الكنيسة الكاثوليكية ذلك سوى مع العام ١٩٥٠. استقرت الحال في الرواية الكنسية الرائجة على الاعتقاد بأن العهد الجديد وما تضمنه

عليها بلغة قبطية أخميمية وبأحرف لاتينية إلى أن تاريخ التدوين يتراوح بين ٢٢٠ و٣٤٠م. وعلى العموم، يأتي ذلك التواري للأسفار المنعوتة بالمنحولة ضمن حملة إخفاء منظمة من الساهرين على الجماعة المسيحية الناشئة، أو جراء قسوة المطاردة الرومانية لاتباع المسيح، وما صاحبها من تستر وتقية. فقد كانت حقبة القرون الأولى حرجة على أتباع السيد المسيح، إلى حد أنها عُرفت في التاريخ المسيحي ب«عصر الشهداء».

ويُبين جوفاني سانتامبروجيو أن تعاليم المسيح في مرحلة الكنيسة البدائية كانت تراثا شائعا بين الجميع، وإنجيل الطفولة إحداها، إلى أن بادر رهط بتدوين تلك المأثورات كل حسب هواه، تحت مسوغات التبشير والتعليم، فكانت بمثابة المدونات الشخصية. وما كان لأي من هؤلاء المدونين أن يدعي فريدة نصه أو أصالة جمعه بما يفوق غيره؛ لكن هذا الوضع ما كان ليُرضي كوكبة المنتقدين لاسيما مع بواذر تشكل المؤسسة التي ترعى الدين وتصون الإيمان، وكان لابد من إقرار أسفار معتمدة بين الجماعة الأولى.

يُبرز مؤلف الكتاب أن لا فارق -من منظور تاريخي أدبي- بين نصوص العهد الجديد القانونية والنصوص الأبوكريفية، ولكن ما يميز النوعين أن صنفا «غدا مقبولا» وآخر «غدا مرفوضا» بموجب أجواء التلقي التي أحاطت بالنصوص داخل المؤسسة بعد أن هجرت الجماعة المسيحية الأولى وضع النحلة إلى وضع الكنيسة، التي باتت تضي الشرعية على النص أو تنزعها عنه وذلك منذ فجر القرن الثاني للميلاد. ففي الوقت الذي مثلت فيه النصوص الشرعية السند للتعليم والتربية المسيحيين لم تحظ الثانية المستبعدة بذلك، وبقيت خارج المدونة التعليمية المعتمدة.

فمنذ البدء، أدرك آباء الكنيسة خطورة تعدد الأناجيل؛ مما أملى محاولات للخروج من المأزق، طورا بإضفاء صدقية على بعض النصوص ونزعها عن غيرها، وآخر بمحاولة صياغة أسفار موحدة مستخلصة من النصوص الحائزة على شرعية، كالذي قام به السوري ططيانس حوالي العام ١٧٥م، مع ما عُرف بسفر الدياتسرون (Diatessaron)، أي: «الرباعية»، بحسب المدلول الأصلي للكلمة، وهو أول ملخص قدم فيه صاحبه الأناجيل الأربعة (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) ضمن رواية جامعة غير مجزأة. فمنذ تحول الإنجيل إلى أناجيل، وما رافقه من تقلص آمال العثور على إنجيل المسيح الحقيقي الكامن خلف الأناجيل، دخلت المسيحية في مأزق، بشأن مشروعية النص المقدس وصدقته، فأبي الأسفار يحوز تلك الأصالة؟



«لا وجود لشمال واحد: ثمّة أشمل» تنوّع مفهوم الشمال في النرويج وروسيا

أحمد الربحي *

يقدّم هذا الكتاب الصادر باللغتين الروسية والإنجليزية نظرةً موسّعةً لمفهوم الشمال بمعناه الثقافي والاجتماعي بالدرجة الأولى، والتاريخي والسياسي باعتبارهما تجلياً أو أثرًا تابعًا للبعد الثقافي/الاجتماعي لظاهرة الشمال. والكتاب عملٌ مشتركٌ قام به مؤرّخون وباحثون من روسيا والنرويج، ضمن مشروع دولي كبير يُعرف باسم «الجوار غير المتماثل» الذي يهدف لدراسة ظاهرة الشمال من مختلف جوانبها، إلى جانب دراسة تاريخ العلاقات بين البلدين الجارين في الشمال الأوروبي؛ أي: روسيا والنرويج.

إنّ مفهوم الشمال لروسيا والنرويج وبضعة بلدان أوروبية أخرى ليس مفهومًا سياسيًا، أو جغرافيًا وحسب، وإنما يمتلك كذلك بُعدًا ثقافيًا تتجلّى خصوصيته في أمزجة سكان الشمال ونمط تفكيرهم وخصائصهم العقلية وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية. وفيما يخصّ النرويج بالذات، لا يختلف اثنان على أنّ الشمال بمفهومه الاجتماعي والثقافي والنفسي يُشكّل الهوية الوطنية للغالبية الساحقة من النرويجيين. وفيما يتعلق بروسيا، فإنّ طابعها الشمالي لصيق بهوية إنسانها أيضًا، ولكن إذا ما حكمنا على هذا الطابع من الجانب الأيديولوجي والعاطفي المرتبط بالشمال والمتأصل في العقلية الروسية منذ الماضي البعيد. وعلاوة على ذلك، وعلى الرغم من كلّ الفوارق بين القوم الروسي السلافي (يتوزّع العرق السلافي في ثلاث جهات: السلاف الشرقيون وهم الروس والبيلاروس والاوكرانيون، والسلاف الغربيون ومنهم التشيكيون والبولنديون، والسلاف الجنوبيون ومنهم الصرب وسكان الجبل الأسود، على الرغم من كلّ الفوارق التي تميّز هذا القوم بالأقوام الاسكندنافية، إلا أنّ الباحثين يكشفون عن شبه كبير في نظم القيم النمطية والسلوك البشري العام بين سكان المناطق الشمالية: النرويج وروسيا والسويد وفنلندا.

الزعامة الحضارية، وإمكاناته العلمية والصناعية الكبيرة وتوفّره على الحياة الكريمة لسكانه. بعكس الجنوب العالمي الذي يعيش رهنًا قرينا بالفقر والتخلف والاكتظاظ السكاني ما فتح شهية النزوح منه إلى الشمال المزدهر. ويرى الباحثون أنّ الضغط السكاني للجنوب يمثل عامل تهديد للمناطق الشمالية، وأن موجات الهجرة من الجنوب، وغيره من الجهات، مرشحة للتصاعد بشكل دائم.

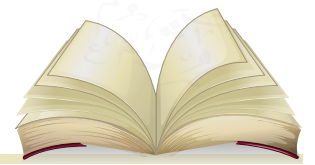
وفي فصل «مفهوم الشمال في الخريطة العقلية للأوروبيين»، يتطرق الباحثون إلى المفهوم المتحرك للشمال، وأنه ظل متأثرًا بالأحداث التاريخية والتحوّلات السياسية الكبرى؛ وذلك بدءًا من بروز الصدام بين الامبراطورية الرومانية المتحضرة والقبائل الجرمانية البربرية القادمة من الشمال؛ حيث أدى قدومهم ذلك إلى رسم صورة لهم مغايرة لصورة الجنوبيين من سكان أوروبا. في الحقبة اللاحقة، التي تنسحب حتى الزمن الحديث، اتسع التباين بين الجنوب والشمال على خلفية النزاع بين العالمين الكاثوليكي واللوثري، وأخيرًا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، نشأت وانتشرت الفكرة عن أجناس الشمال الأوروبي واعتبار سكان الشمال من أكثر سكان

الثقل الفكري والبحثي يتمركز على ثنائية «الشرق-الغرب»، مع ذلك بدأت ظاهرة الشمال تخرج من الظلال وتتموقع في المساحة التي ستؤهلها لاحقًا لملء حيزها الحقيقي، وقد بدأت إرهاصات ذلك تظهر للعلن؛ حيث أصبح من المستحيل اليوم التحدّث عن التنمية العالمية وتنبؤ المستقبل البشري بمعزل عن الشمال. إضافة إلى ذلك، فإنه: «في إطار تغيير الاتجاه الجيوسياسي إلى الشمال، فقد تفاقم التناقض الشمالي الجنوبي وذلك بسبب اشتداد المنافسة العالمية على القطب الشمالي لما يضمه من موارد طبيعية هائلة، ولرغبة البلدان الجنوبية في أخذ حصتها منه. وعلى هذه الخلفية، يتراجع اليوم الصراع التقليدي للعصر الحديث بين الشرق والغرب الذي بدأ أثناء الحروب النابوليونية، بينما تبقى أكبر بؤرة لهذا الصراع، المواجهة بين الولايات المتحدة والصين» (ص: ٤٨).

ومن المعلوم أنّ في فلسفة المجتمعات التقليدية تتأصل الصورة النمطية التي تقدم الجنوب على أنه غني ومتحضر، خلافًا للشمال الفقير والبدائي والقاسي. اليوم، كما يشير إلى ذلك مؤلّفو الكتاب، تشهد انقلابًا هذه الكليشات الاجتماعية والثقافية. ويؤكد الباحثون على دور الشمال في رهن حياتنا وتمتعه بخصائص

ويؤكد الباحثون أنّ الاهتمام الدولي بالمناطق الشمالية ما برح يشهد نموًا مستمرًا. وينطلق الباحثون من فكرتين كبيرتين لصياغة أطروحتهم حول الشمال: الأولى تنفي الفرق بين شمال وجنوب، شرق وغرب في بناء الحضارة الإنسانية وتجعل جميع الجهات الأربع على قدم المساواة في هذا الشأن. أما الفكرة الثانية فهي -كما يشير العنوان- أنّ هناك أشمل في الشمال نفسه. أي الاعتراف بتنوّع الشمال داخليًا من جهة الجغرافيا ومن جهة سير التاريخ. مع ذلك يمكننا التحدث عن الحضارة الشمالية باعتبارها وحدة متجانسة في حوارها المتوتر مع الجنوب. ويحدد الباحثون حضارة الشمال في ثلاثة أقطاب: الأوروبية، والروسية، والأمريكية، ويرون أنّ هذه الحضارة شابة قياسًا بحضارات الجنوب، وأنها جاءت لتحل محل الحضارات الجنوبية القديمة. وفي فترة السبعينيات من القرن الماضي بدأ السجال يشتد بين الشمال والجنوب، وبدأت بوادر الصراع تظهر على السطح لا سيما عند مناقشة مسائل تتعلق بالنظام الاقتصادي الدولي الجديد.

وعلى الرغم من أنّ البعض ما زال ينظر إلى الشمال كموضوع عديم الأهمية، وأنّه ليس إلا جزءًا من الغرب ولا يحظى بالاستقلالية، وأنّ



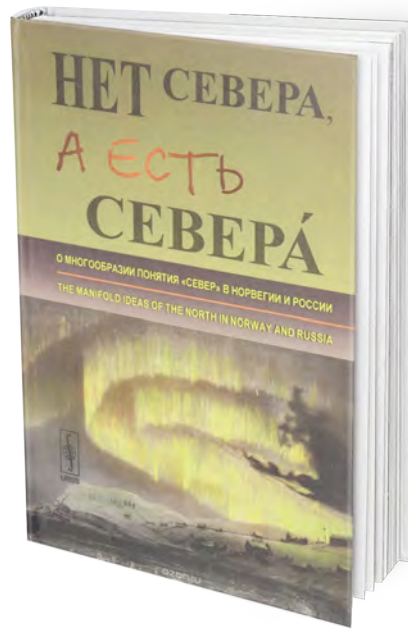
تضافات الشمال. والواقع أن انخفاض الإنتاجية الزراعية للمناطق الشمالية يتطلب تَوْزُّع السكان وحركيتهم العالية في سبيل كسب الرزق؛ لذلك: «أسس أسلاف الفايكنج دولا ذات مركزية صارمة (...) تبرز فيها العقلية الرصينة والبراجماتية التي كان يتحلَّى بها حكام الممالك النورمانية. تمثل ذلك في النظرة إلى القانون باعتباره أفضل آلة لترسيخ أركان الدولة. وظهرت البراجماتية حتى في المعالجات الحذرة للدين والكنيسة: تم الحفاظ على البابوية، ولكن مشاركتها في الشؤون الدنيوية كانت محدودة. نرى إرث الفايكنج أيضا في طابع التمدد لشعوب أوروبا، وسعيهم الاستثنائي للسيطرة على الأراضي الخارجية، وحركتهم العالية التي يشوبها الجشع. كما لا ننسى أن الثقافة الأنجلوسكسونية المهيمنة على العالم الحديث هي الثقافة التي أرست جذورها بُعيد غزو النورمان لبريطانيا (ص: ٥٦-٥٥).

ويدرس مؤلفو الكتاب الميزات الثقافية والاجتماعية للشعوب الأخرى، وبينهم المغول الذين تعتبر عاصمتهم «أولان باتور» أبعد عاصمة في العالم (لا يرتفع متوسط درجة الحرارة فيها عن أربع درجات تحت الصفر، فيما المتوسط السنوي في موسكو خمس درجات وثمانية أعشار الدرجة). ويعتقد الباحثون أن التسامح والانفتاح أبرز سمتين ميزتا المغول وسمحت لهم إثبات إمكاناتهم الحضارية: «تمكنوا من استيعاب المجتمعات الأخرى، واستخدموا مواردها للمزيد من التوسع. وقد أثبتت تلك الممارسة فاعليتها العالية في تنظيم الجيوش وإدارة الدولة (ص: ٥٧-٥٦).

يستنتج الباحثون في فصل «الفضاء الروحي والفكري لمنطقة القطب الشمالي» أنه -وعلى الرغم من التنوع العرقي، وتضرد التطور التاريخي والهوية الثقافية لشعوب الشمال، إلا أن- ثمة سمات مشتركة كثيرة تجمع بينهم؛ ومنها: الميل إلى التوسع الاستعماري، والقدرة على التكيف والبقاء على قيد الحياة في ظروف بيئية قاسية، وضآلة التمييز الاجتماعي، ووجود فكرة المساواة الاجتماعية المتأصلة في الوعي، والانتشار المتأخر للمسيحية، والمستوى العالي من التنظيم الذاتي للمجتمع، والابتعاد عن بؤر الحياة السياسية.

- الكتاب: «لا وجود لشمال واحد: ثمة أشْمَل».
- المؤلف: مجموعة مؤلفين.
- الناشر: دار ليناند، موسكو ٢٠١٦، باللغة الروسية والإنجليزية.
- عدد الصفحات: ٢٨٨ صفحة.

* كاتب عُمان



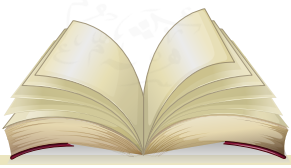
والطاقة، أمَّا تربية الأطفال فيعهد بها للجدات، وهو تقليد راسخ لا يزال يؤخذ به في روسيا حتى اليوم.

ثمة آثار أخرى رسمتها طبيعة الشمال القاسية في ملامح الحياة والشخصية الروسية. فالمساحات الهائلة الخالية من الطرق لعبت دورًا في تشكيل المجتمع القوي بدنيا، وثبتت من علاقاته الداخلية، وعززت المعايير العالية تجاه أفرادها. وبسبب فترات الفراغ الطويلة؛ حيث الثلوج تغطي الأرض وزرعها معدوم، تطورت في المجتمع الحرف اليدوية التي تعتبر النواة الأولى للصناعات الروسية المتقدمة. وبالمقابل، يشير الباحثون إلى أن: «بعد المستوطنات الروسية الشمالية وغياب المصالح المشتركة مع الآخرين مهدت للعدمية القانونية هناك، والتي أصبحت فيما بعد سمة للشعب كله. مثال على ذلك: فسبب وفرة الغابات لم تواجه السكان مشكلة الوقود ومواد البناء والموارد الغذائية، وعندما أرادت الحكومة المركزية في الوقت الحاضر اتخاذ إجراءات لحماية الغابات والحفاظ على البيئة، عارضها الناس واعتبروا ذلك تعديا على حقوقهم الموروثة عن أسلافهم. وقد عقد عدم التفاهم هذا العلاقات بين السلطات والسكان الذين عودتهم الطبيعة على الرضوخ السطحي لها فيما الداخل يحتد بقوة. ونجد سمة التعامل مع الظروف المناخية هذه ماثلة في طبع الإنسان الروسي، فكما لم يكن بمقدوره أن يقاوم جبروت الطبيعة واضطراره إلى التجميل بالتواضع تجاهها، فقد تحمل بنفس المقدار السلطة ومنفذها من رؤساء ومديرين؛ حيث ينظر إليهم باعتبارهم «مُصدراً للضرر ليس إلا» (ص: ١٧٦).

يجمع الباحثون على أن قدرة السيطرة على المساحات الواسعة هي ميزة أساسية مشتركة لكل

القارة الأوروبية طاقة وتحملا لأعباء الحياة. وفي فصل «البُعد التاريخي للشمال الروسي»، يحرص الباحثون مهمتهم في تقصي طابع وهوية الشمال في التاريخ الألفي لروسيا. يبنشون في هذا الفصل الخصائص الثقافية والاجتماعية المكونة للهوية الشمالية لروسيا، فيرونها في الغالب في دائرة الحوار بين الروس وجيرانهم من الدول الاسكندنافية. حدث ذلك في فجر التاريخ الروسي عندما دعا الروس الأمراء الاسكندنافيين لإدارة بلادهم. وفي فترة الفتنة الكبرى، حين قام الجيش الروسي والسويدي بطرد قوات القيصر دميتري المحتلة من موسكو، ومن ثم، بعد مائة عام من ذلك، حين أسس الإمبراطور بطرس الأول مدينة سان بطرسبورج وجها لوجه مع الدول الاسكندنافية، وجعلها عاصمة لبلاده، ومن يومها بدأت مفردة شمال تترسخ في الوعي الجمعي الروسي وتجلت في مختلف مناحي الحياة (من ذلك أسماء المجالات الأدبية المعروفة: النحلة الشمالية، زهور الشمال، أرشيف الشمال... إلخ). كما ظهر موضوع الشمال مع بداية السلطة السوفيتية؛ حيث قامت بتجربة جريئة تتمثل بشق الطريق البحري الشمالي على مقربة من القطب الشمالي. ولكن اعترضت هذا المشروع مشاكل فنية كبيرة مما تسبب في تعطيله، ويتوقع لهذا المشروع في حالة إتمامه مد الاتصال بين الجزء الأوروبي لروسيا بشرقها الأقصى، وهي مسافة تستغرق أسبوعا بالقطار حيث تلتف بسيبيريا. ومع انهيار منظومة الاتحاد السوفيتي الذي كان يُمثل الشرق الاشتراكي، ويقف في مواجهة الغرب الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة، اختفى وضع روسيا كبلد شرقي في مقابل تعاضد هويتها الشمالية.

وفي الفصلين التاليين من الكتاب -وهما: «البرابرة الشماليون والحضارة الشمالية»، و«تأثير العوامل المناخية في تشكيل العلاقات الاجتماعية بين سكان الشمال الروسي الأوروبي»- يهتم الباحثون بدراسة الجانب الثقافي لمناطق الشمال محل بحثهم. في نظرهم أن طبيعة الظروف القاسية للشمال الروسي حتمت على السكان الالتزام بطريقة عيش جماعية، حتى غدت الجماعية إحدى أهم سمات المجتمع الروسي قاطبا. ومن السمات الأخرى التي ورثها المجتمع الروسي من الطبيعة القاسية: الإعلاء من قيمة الإنسان وتثمين وجوده على قيد الحياة. فالحاجة إلى الأفراد كانت ملحة للأعمال الزراعية التي تتطلب الكد وسرعة التنفيذ؛ فالصيف قصير للغاية والحياة متعلقة بمحاصيله. وللسبب نفسه كان الجميع رجالا ونساء يعملون جنبا إلى جنب، وبنفس الوتيرة



«كلمات ربما تتوق النفس إلى سماعها» لجونج هي جيه

د. محمود عبد الغفار *

ظل هذا الكتاب لحوالي أربعة عشر أسبوعاً ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في كوريا، بعد أن أُعيد طبعه في فترة وجيزة.. يبدأ الكتاب التنويه عن موضوعه الشائق من الغلاف مباشرة باقتباس لحوار من دراما كورية، حققت شهرة ولاقت اهتماماً كبيراً في البلاد قبل عدة أشهر «شيكاجو تا جاكبي»، أو «الآلة الكاتبة في شيكاغو»؛ حوار دار بين الشخصيتين المحوريتين في تلك الدراما مكتوب جنباً إلى جنب مع صورة للآلة الكاتبة على غلاف الكتاب؛ تلك التي عُثر عليها البطل في شيكاغو بعد رحلة صعبة من البحث؛ لأنها كانت قد صنعت في وطنه كوريا؛ «أنت! لقد عملت بك حتى الآن لأجل أن تعيش، لأجل أن تتمكن من البقاء حياً في هذا العالم. لقد تعبت كثيراً بالفعل». بتلك الكلمات أحس المتحدث إليه بنوع من الراحة على نحو ما تفسر مؤلفة الكتاب. ومن هنا، وبهذه القدرات التشويقية، تبدأ رحلة البحث عن الكلمات التي ننتظرها جميعاً، ودون استثناء، لنتخفف من مصاعب الحياة وآلامها أينما وجدنا على هذا الكوكب.

ولدت المؤلفة جونج هي جيه في مقاطعة جونام، وبها قضت سنوات طفولتها، ثم عاشت فترة المراهقة والشباب في مدينة بوسان، وانتقلت منذ العام 1996م للعيش في العاصمة سيول؛ مما يعني أنها تتحدث لهجات لثلاث مناطق مختلفة في كوريا، وهو ما عبّرت عنه بكل فخر في مناسبات عديدة، لكنه فخر ممزوج بنوع من الألم لأن الناس بتلك المناطق لم يتقبلوها باعتبارها من السكان الأصليين، وهو أمر يلعب دوراً كبيراً في تكوين علاقات قوية مع الآخرين في كوريا الجنوبية بشكل خاص. لذا؛ فقد كانت تحس دوماً أنها مزيج أو خليط بين سكان الريف والحضر، مزيج من الرحالة والأشخاص العاديين المستقرين بالأماكن.

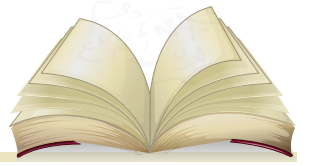
الإنسان يعيش حياته مرة واحدة فحسب. لا يعني هذا أن يعيش المرء دون اهتمام بالأشياء من حوله، وإنما يعني أن يعيش دون أن يحمل نفسه من الأعباء ما لا طاقة له به. الحياة بسيطة وعلينا أن نعيشها بخفة تتناسب مع بساطتها. فكل ما يحتاجه المرء لأجل أن يظل حياً هو الطعام؛ أبسط أنواع الطعام تكفيه. وكل ما يحتاجه لستر جسده هو الملابس؛ ومن حسن الحظ أن أبسط أنواع الملابس تكفيه أيضاً. كما أن أبسط الأمكنة تحميه وتوفر له الأمان. على المرء أن يترك لعقله فرصة الاسترخاء وستتكفل طبيعتنا الخيرة بملء كل الأمكنة المتاحة في رأسه آنذاك. إن كل ما يحتاجه المرء قابغ داخله؛ ذلك الداخل الجميل والمتميز. بهذه الكلمات الجميلة ذات الجذور البوذية تختتم المؤلفة الفصل الأخير من الكتاب.

وبالعودة إلى افتتاحية الكتاب تحت عنوان «تغلبت على الأوقات التي لا تطاق بفضل العبارات المشرقة الحماسية»، تقول المؤلفة إنها كلما نظرت إلى الوراء، تذكرت كيف تغلبت على الأوقات الصعبة والأشياء المتعبة التي لم تستطع تقبلها بفضل قوة الكلمات التحميسية المبهجة من الآخرين في محيطها. كلمات بسيطة شديدة التواضع في الحقيقة لكن ما تحمله

«كلمات ربما تتوق النفس إلى سماعها». تناولت المؤلفة في النقطة الأولى منه الفترة التي كانت خلالها تعيش في الطابق الأخير بمنزل مستأجر، كما تناولت ما يتعلق بفكرة أن تحس بالرتاء لحالك لأنك تتناول الطعام وحدك، لكنها مع ذلك تعتبر مثل هذا الوقت وقتاً مقدساً. وتحت عنوان «أمل أن تكون الليلة أكثر إظلاماً» تناولت بعبارات شعرية فكرة لطيفة بصيغة حجاجية تشبه ما اعتدنا عليه عند الحديث إلى الأطفال: «بينما تغط في النوم. كل التعاسة والمساوية التي تتبعك طيلة النهار ستنام هي الأخرى. إنه الظلام. الظلام التام. وسيكون من الملمح لعقلك المشوش باليأس أن يستعيد -دون شك- الإحساس ثانية بالبحث عن رغبة لم تتحقق بعد». ثم تناولت بعد ذلك عدة نقاط مثل: المكان الذي تود أن تسير فيه سيراً حثيثاً، وإليك يا مَنْ ستقطع طريقاً مُنهِكاً إلى عمك في الغدا! والسعادة تكمن في قدرتك على تنتزع يومك الجديد انتزاعاً من اليوم الحالي. وهنا تحديداً تتحدث عن علاقتنا المؤقتة بالسعادة تلك التي تشبهها بعمل غير دائم لعدد من الساعات يومياً: «السعادة تكمن في كل عمل لا يمكنك إرجاؤه إلى الغدا». ثم تختتم هذا الفصل بالتأكيد على أن

وربما من هنا تشكلت أفكارها حول حاجتنا لكلمات المواسة والدعم والاعتراف بمنجزنا مهما كان متواضعاً، والتخفيف عن همومنا ومشكلاتنا مهما بدت بسيطة للآخرين. نشرت جونج هي جيه عدداً من المؤلفات، ووصفت بقيمتها العالية ولغتها شديدة العذوبة والرقي فيما يتعلق بفهم الذات والعالم والحياة. ومن هذه المؤلفات: «تعلمت الحب هناك»، «تمنّ حظك»، «قصة التبت»، «الروح التي ليس بمقدورك أن تحبسها»، وهذا الأخير سيرة ذاتية لراهب بوذي شهير في التبت «بالدن جياشو». وبيدافع من حبها للأطفال وعشقها للعب معهم كتبت بعض الكتب المصورة خصيصاً لهم؛ مثل: «ساعدني يا رجل فرشة الأسنان»، «انتبهي يا ساحرة القمرشات». وهي حالياً منشغلة بالتنقل بين المدن الكورية لتتعرف على الناس، وتتجاوز معهم عبر حسابها الخاص على موقع «نيفر»، مواصلة رحلتها في فهم الذات والآخر والحياة والعالم من حولها.

أمّا عن الكتاب، فقد جاء في أربعة فصول.. وقد اشتمل كل فصل على عدد من النقاط. وسنبداً تناول محتوياته من الفصل الرابع والأخير لأنه الفصل الذي ربما استمد الكتاب عنوانه منه أو العكس:



أن تتبع ذلك الفارس الذي حارب الريح في الأساطير القديمة، لكنها تقر بعجزها عن امتلاك القدرة على استجماع قواها حال هزيمتها. إنها شخصية لا يمكنها أن تكون في مكان ما دون أن تخوض صراعاً داخل عقلها، كما أنها لا تتمتع بشجاعة الاستسلام والرحيل. على إية حال، وعلى لسان الكاتبة تقول: كلما وقعت أزمة أحسست أمامها بضآلتي، اتجه على الفور إلى المطار ولو لتناول وجبة خفيفة وفنجان من القهوة ثم أعود إلى بيتي. فخلال وجودي في المطار أحس كما لو كنت رحالة تبغي احتضان العالم الغريب عنها بمنتهى القوة. النقطة التالية في هذا الفصل بعنوان: «سبب ذلك أننا وحيدون». ففي لحظة ما نحس كما لو كنا فارين، وكأن أرواحنا تهول بحثاً عن مكان لتتخفى بعيداً هرباً من اليأس والوحدة والقلق والصدمات، إلى أن ندرك أنه ليس علينا أن نهرب أو نتخفى أمام كل ذلك. كل ما علينا أن نعيه هو تقبل ذلك عندما يحدث لأنه، وبأي معنى من المعاني، لن يدوم. ثم يتناول الفصل عدة نقاط أخرى: الكلمات التي أسمعها عندما أشعر بالحب. إنه ليس شيئاً تراه عندما تسافر فحسب. الإنسان الراضي رحالة داخل نفسه يدرك قيمة الأشياء التي لا تقدر بثمن في حياته. الحياة في غاية البساطة. ثم تتحدث تحت عنوان «بعد أن نتجاوز المراهقة» عن أنه ليس هناك إجابات في الحياة. عليك أن تتقبل ذلك على النحو الذي هي عليه دون شد وجذب، وأن تحاول تغيير ما تستطيع تغييره فحسب. أما النقطة الأخيرة في هذا الفصل، فهي التي استمدت الفصل عنوانه منها «تعجبي لحظة إحساسك بالضعف»، وتتحدث فيها عن مدى بساطة ما يطلبه الناس أو يتمنونه. لكن العجيب في الأمر أن البعض لا يدرك أن طلب الأشياء البسيطة يعني أنك شخص بسيط؛ وبالتالي علينا أن نعيش الحياة ببساطة دونما تعقيد وأن نتعلم كيف نقدم الدعم والتشجيع الذاتيين لأنفسنا، فكم من مرة أنا شخصياً أضمر راحتي معاً وأقول هامساً: «أنا هنا معك أشجعك وأدعمك. أنا هنا الآن ودائماً لأجلك. وبهذه العبارات الشعرية التي نحتاج أن نردها لأنفسنا جميعاً إن لم نجد من يقولها لنا تحتتم الكاتبة بلغتها العذبة هذا الفصل من الكتاب.

- الكتاب: «كلمات ربما تتوق النفس إلى سماعها».

- المؤلفة: جونج هي جيه.

- الناشر: جيل ليون، 2017م، باللغة الكورية.

- عدد الصفحات: 256 صفحة.

* مدرس الأدب الحديث والمقارن، كلية
الأداب - جامعة القاهرة



تركها ورائي متسائلة عن مقدار ما أحسته من برد بعد أن سلبت الدفاع.

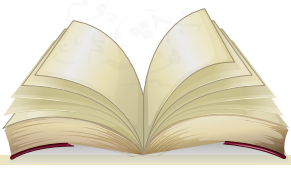
وفي الفصل الثاني بعنوان «لحظات الخوف عندما كان الوالدان على قيد الحياة». عندما تغيب الشمس فهذا يعني أنك قد أتممت يومك. لقد كنا نشعر بالخوف والقلق أحياناً حتى في وجود والدينا أحياء بجانبنا؛ لذا فليس هناك ما يدعو للقلق إن شعرنا بالخوف بعد رحيلهم عن عالمنا. علينا أن نكون قد تعلمنا من غياب الشمس المتكرر أننا ما زلنا بأمان، ومن ثم، وعلى هذا النحو من التفكير سنكون في أمان مستقبلاً. ثم يتناول هذا الفصل عدداً من النقاط الأخرى مثل: لقد أثرت في ذاتي. هل أندم؟ على الإطلاق. الأوقات الطيبة والعصيبة في الحب. حتى مع غياب الحب، فإنهم يعرفون كيف يحبون الأشياء. صعوبات مرحلة المراهقة. لا تكن متشعباً بأحاساس معين في لحظة معينة؛ فالمشاعر تأخذ وقتها وتمر، ومع ذلك ومهما تعلمنا يحدث كثيراً أن نظل رهن شعور ما لفترة من الزمن. ثم أخيراً يعرض في هذا الفصل ما ذكرته الكاتبة تحت عنوان «الأشياء التي يمكنك أن تضرها بكلمة (الأفضل)». فإلى متى وبأي درجة يجب عليّ محاولة أن أكون الأفضل؟ وما السبب في ذلك؟ بل ولماذا من الأساس عليّ محاولة أن أكون الأفضل؟ هل نخشى أن نكون وحدنا إن لم تكن الأفضل؟ لا أعرف الإجابة في الحقيقة. كل ما أعرفه في هذا الخواء المسمى «الحياة» أنني قد أكون الأفضل أحياناً، والآخر من حولي هم الأفضل في أحيان أخرى، وأني بقدر ما تصيبي التعاسة سأفرح؛ فهذه سنة الحياة.

الفصل الثالث بعنوان «حقاً تعجبي لحظة إحساسك بالضعف»، يبدأ هذا الفصل بالحديث عن سبب ذهاب الكاتبة المتكرر إلى المطار؛ حيث تقول إنها تريد

من طاقة إيجابية عند سماعها يفوق الوصف. كلمات تخبرك أن هناك أحداً يهتم بك ويبحث عنك ويتطلع لأن تكون في أحسن حال. عبارات خفيفة بلغة بالغة الاعتيادية تستطيع بكل تلقائية أن تجعلك في حال أفضل: «هل أكلت؟»، «أين أنت الآن؟»، «لقد اشتقت إليك». وهذا الكتاب على أية حال يدور في فلك مثل هذه العبارات التي تتوق نفوسنا جميعاً لسماعها لتمسح عنا أوجاعنا اليومية. عبارات نحتاجها جميعاً رغم بساطتها الشديدة، تماماً كحاجتنا إلى من ينادينا بأسمائنا بين الحين والآخر. قد ندعي أننا بخير وأن كل أمورنا على ما يرام، ولكننا في العمق نظل في حاجة إلى عبارات المواساة والتشجيع من الآخرين.

في الفصل الأول بعنوان «لماذا تدعي دائماً أنك بخير؟» تذكر الكاتبة أنه يحدث أحياناً أن تشعر بالامتنان والرضا لثناء الآخرين ودعمهم، ولكن في أحيان أخرى تكون كلماتهم غير مرضية ولا مريحة. في هذه الحالة ليس عليك أن تتقبلها بعقل مُسترخ، كما أنه ليس عليك أن تدعي ساعتها أن كل شيء بخير. في النقطة التالية من هذا الفصل بعنوان «أكثر ما تتوق نفسي لسماعه من أمي» تقول لو أن أمك لا تزال على قيد الحياة فهذا يعني أن هناك من يربحك ويهتم لحالك كما كانت أمي تفعل معي. ففي تلك الليلة ذات صيف تذكرت دموعها، ثم تحشرجت الكلمات التي لم يكن باستطاعتي أن أبوح بها إليها بحلقي لأنها لم تعد معي. في النقطة التالية تتحدث المؤلفة عن الأشياء التي يجب معرفتها بعد انتهاء علاقة ما خاصة علاقة الحب. فبعد فشل مثل تلك العلاقة عليك أن تخبر نفسك أنه ليس عليها أن تقلق على مصير الروح فيما بعد لأنها مع ذلك الحب - حتى مع انتهائه - قد ولجت الجنة وعرفت مذاقها ولو لمرة واحدة. ورغم ما قد تصيبك به تفاصيل الحياة اليومية من يأس فلا تندم أبداً على تلك الأوقات التي اقترضتها فيما سبق من تلك الجنة! بعد ذلك تتحدث الكاتبة عن كيفية أن يكون المرء نافعاً؛ نفع المرء لا يتحقق وحصوله على تقدير الآخرين لن يتحقق، إلا إذا كان المرء نفسه مقتنعاً بقيمته وأهميته ونفعه لنفسه وللغير. أما عن النقطة التالية بعنوان «أشد الحقائق بساطة عن معنى العمل» فقد ركزت خلالها لا على العمل بالمعنى الذي نعرفه جميعاً، وإنما على فكرة مؤداها أنه من الجميل ومن المقبول أن تكون عنيماً عندما تتطلب الأمور ذلك. ثم يتناول الفصل عدداً آخر من النقاط؛ مثل: عندما ينفطر القلب أماً بسبب الآخرين. لقد فعلوا ذلك لأن فيهم رعونة مثلي. الحياة بلهاء ولكن الرحلة مستمرة. ثم أخيراً: ذلك الشيء المسمى بالشتاء قارس البرودة أيقظني؛ فعندما يأتي الربيع ألمم الأشياء التي





«إبادات جماعية» للهندي كليم

ويلا بوراتو عبدالكبير *

في مُقدمة الكتاب تحت عنوان «لماذا هذا الكتاب؟»، يقول مؤلفه كليم، إنَّما خُيِّل له أن الإبادات الجماعية والجرائم الحربية تستحق مزيداً من الدراسات في عمقها، كان ذلك لما قرأ عن المحامي المغامر من قارة أوربا رافائيل ليمكين (Rafeal Lemkin 1900 - 1959). إذن من هو هذا المحامي المغامر «رافائيل ليمكين»؟ الكاتب يلقي عليه الضوء في الفصل الأول. هو الذي لفت نظر العالم إلى جريمة الإبادة الجماعية التي وصفها رئيس الوزراء البريطاني الأسبق وينستون تشرشل «جريمة ليس لها اسم». ينسب إليه مصطلح (Genocide) الذي يعني الإبادة الجماعية. هذا اليهودي البولندي سعى في العام 1944 إلى وضع وصف للسياسات النازية للقتل المنظم بما في ذلك إبادة الشعب اليهودي الأوروبي فقام بتشكيل مصطلح (Genocide)؛ وذلك عن طريق الجمع بين الكلمة اليونانية (Geno) التي تعني سلالة أو عرق أو قبيلة مع الكلمة اللاتينية (Cide) والتي تعني القتل. كان يعاني طول حياته من الفقر المدقع، حضر مؤتمر الأمم المتحدة الذي انعقد للبحث عن تعريف الإبادة الجماعية لابسا سترة ذات ثقب، وقال أثناء خطابه: (I am here with a holey coat for a holy cause)، إنني حاضر هنا لابسا سترة ذات ثقب لقضية مقدسة، ولما مات كان عدد الحاضرين في جنازته سبعة رجال فقط.

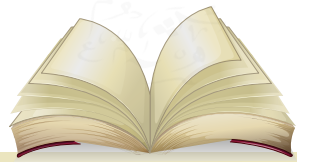
الإنسان البدائي «النياندرتالي» للاستيلاء على كرة الأرض كما يزعم العلماء الحضريون. وقبل زهاء مائتي وخمسين ألف سنة كانت كرة الأرض يسودها الإنسان النياندرتالي، وكانوا لا يختلفون عن نوع الإنسان الهوموسابين جسدًا إلا باختلافات بسيطة. وتوجد وثائق حجرية تثبت تنقلاتهم من أوروبا إلى الشرق الأوسط. وكانوا يعجبون من الحلي ويدفنون جثامين موتاهم. كان «شان شان هبلان» الأستاذ في جامعة «بورودو» أول من تقدم بنظرية قيام «الإنسان الهوموسابين» بإبادة النسل «النياندرتالي» جماعياً. وهذا يصدق الاستنتاج بأن الضوايق العرقية البسيطة قد تقود إلى إبادة جماعية. وصحيح ما يقول المؤلف من أن الإنسان هو النوع الوحيد في عالم الحيوانات الذي يُمارس قتل إخوانه بشكل جماعي يستهدف الهيمنة عليهم. وراء جميع الإبادات الجماعية يمكننا أن نرى شعور الهيمنة القبائلية أو العرقية. وفي غابر الزمان، كانت هناك قبائل ينسبون جذور أصلهم إلى الشمس الإله أو الإله الإغريقي «سيوس» أو «تورس» أو غيرها. كان اليهود يعتقدون أنهم شعب مختار من الرب «يهووا»؛ لذلك ينظرون إلى عرب الجزيرة بنظر دوني دون أن يراعوا التزاماتهم المالية نحوهم؛ لأن العرب في نظرهم أميون أي قوم بدائيون بلا كتاب مقدس؛ لذا يجوز لهم أن يتعاملوا مع العرب كيف يشاؤون. وقد انتقدهم القرآن انتقاداً لاذعاً في هذا الشأن. وهذه الذهنية التاريخية هي التي تسودهم حتى الآن ضد الشعب العربي في فلسطين.

وفي هذا الفصل، ينقل الكاتب أمثلة كثيرة للإبادات الجماعية من التاريخ القديم. فمثلاً حين نقرأ ملحمة «اللياد» لـ«هومار» نسمع إشارات إلى الإبادات الجماعية في أمر الملك «آجامنان» لتدمير مدينة «تروي» دون أن يبقى فيها أثر حياة أحد. وتوابع هذه الظاهرة نراها تتكرر في الثورة الفرنسية التي

جرائم الإبادة الجماعية. غير أن الالتزام بالاتفاقية يظل التحدي الذي تواجهه الدول والأفراد. وقد حدث عدد كبير من القتل الجماعي في الهند، وإن لم تتسم بهذه المسميات. والهند بلد قابل لاندلاع اضطرابات مفاعئة في أي وقت كما أشار إليه كثير من المحللين. وفي نظام ديمقراطي توجد أشكال كثيرة من السياسة الهندوسية اليمينية ظاهرة وباطنة في كل مكان فيه، تتحول حوادث بسيطة بسرعة إلى قتل جماعي. وفي ظل القومية العرقية والأمن الوطني يتسنى لمن يتولى كبرى الجرائم أن ينسلوا من المقاضاة والعقوبة. هكذا نستطيع أن نجد في سدة الحكم حتى في الوقت الراهن من يجني أرباح آلاف الألوف من القتلى في «نيلي» في ولاية «أسام». وكذلك لم يعاقب إلا شريحة قليلة ممن ترأس الإبادات الجماعية في «غوجرات» و«دهلي». وفي هذا السياق يبحث الكاتب عن الإبادات الجماعية. ويتناول الكتاب موضوع ثلاث عمليات من القتل الجماعي التي يمكن أن تضم إلى تعريف الإبادات الجماعية والتي وقعت في ولاية «أسام» و«دهلي» و«غوجرات» في الهند. وقد ورد ذكر هذه الحوادث الفظيعة في عنوان الكتاب ذاته مما يدل على أن الكاتب يريد تسليط الضوء على تفاصيل هذه الأحداث المأساوية. وتمهيدا لتحليل هذا الموضوع يأتي بحث مفصل عن الإبادات الجماعية التي جرت على خشبة المسرح العالمي قديماً وحديثاً، وعن الدوافع الاجتماعية والثقافية التي تعمل وراء هذه الممارسات الوحشية.

ينقسم الكتاب إلى جزأين.. الأول: يحتوي على ثلاثة عشر فصلاً بمثابة مدخل إلى المأسى في الهند من «نيلي» إلى «غوجرات». يبدأ هذا الجزء بأول إبادة جماعية حدثت في التاريخ، كان ذلك قبل 3000 عام تقريبا حين قام «الإنسان» الذي يحمل الاسم العلمي «الهوموسابين» باستئصال النسل

ونظراً للجهود المتواصلة على نطاق واسع التي قام بها رافائيل ليمكين بنفسه في أعقاب «الهولوكوست»، أقرت الأمم المتحدة في 9 ديسمبر 1948 اتفاقية تقضي بمنع جرائم الإبادة الجماعية ومعاقبة مرتكبيها، واعتبرت هذه الاتفاقية الإبادة الجماعية جريمة دولية ضد الإنسانية، تتعهد الدول التي وقّعت عليها بمنعها والمعاقبة عليها. والإبادة الجماعية تعرف على أنها القتل المتعمد الجماعي لمجموعة كاملة من الأشخاص تقوم بها حكومة معينة ضد شعب على أساس ديني أو عرقي أو قومي أو سياسي. ووفقاً للمادة الثالثة من تلك الاتفاقية لا يقتصر التجريم على الإبادة الجماعية فقط، بل نطاقها شامل يحتوي على التآمر على ارتكابها والتحريض المباشر والعلني عليها ومحاولة ارتكابها والاشتراك فيها. وبموجب استشارة قانونية لمحكمة العدل الدولي في 28 مايو 1951، تسري أحكام هذه الاتفاقية حتى على الدول التي لم تصادق عليها. وقد تعزز ذلك بتقرير من الأمين العام للأمم المتحدة في مايو 1953 كما صادق عليها مجلس الأمن؛ باعتبارها جزءاً من القانون العرفي. الإبادات الجماعية إنما وجدت طريقها إلى الدفاتر القانونية بعد الحرب العالمية الثانية فقط. ومحكمة «نيورامبرج» لم تعتبرها جريمة حرب. وقد تغيرت الآن هذه الحالة؛ فالإبادات الجماعية والتطهير العرقي أصبحت اليوم من جرائم ضد الإنسانية. وجدير بالذكر أن المحكمة الجنائية الدولية في لاهاي قد حكمت عقوبة على المجرمين من هذا النوع من يوغوسلافيا السابقة وأفريقيا. تركز التطور الدولي والقانوني للمصطلح حول فترتين تاريخيتين، الفترة الأولى (1944-1948) بدأت منذ صياغة المصطلح وحتى قبوله كقانون دولي. وأما الفترة الثانية (1991-1998) فهي فترة تفعيله في ظل تأسيس المحاكم العسكرية الدولية للبت في



قامت في العام ١٧٨٩ برفع شعار الحرية والمساواة والمواخاة؛ حيث أصبح أصحاب الثورة المضادة في نظر الثوار ممن يستحق الإبادة الجماعية. فضموهم إلى قائمة أعدائهم ليس رؤساء الإقطاعيين فقط، بل الفلاحين العاديين أيضا حتى الأطفال والنسوان. ورأت لجنة الثورة أن الأطفال يمكن أن يتحولوا إلى نهابين فيما بعد. الدوافع وراء عملية الإبادات قد تكون عقدة الاستعلاء العرقي أو الديني بينما تكون في حين آخر التهديد الناجم ضد مجموعة هيمنت على المجتمع منذ فترة. وعلى سبيل المثال: يُشير الكاتب إلى تدمير الروم مدينة «كارتيج» التي كانت تحت سيطرة الفينيقيين.

وفي الفصول التالية في الجزء الأول تأتي شريحة من إبادات جماعية حدثت في التاريخ المعاصر. وكانت رواندا أول دولة تعرضت للإبادة ضد جريمة الإبادة الجماعية. وفي عام ١٩٩٨ حكمت المحكمة الدولية على مرتكبي الإبادة الجماعية في رواندا بالسجن مدى الحياة، وكان من بينهم «جان كمباندا» الذي كان في منصب رئيس الوزراء في بداية عملية الإبادة والذي اعترف بمسؤوليته عن إبادة المدنيين «التوتسيين». ويرى ناشطوا الحقوق الإنسانية أن ما تقوم به إسرائيل اليوم من الاعتداءات الهمجية على سكان غزة، وما قامت به العصابات الإرهابية الصهيونية المسلحة مثل «هاجانا» تاريخياً في دير ياسين، وما تلاها كمجازر صبرا وشاتيلا... وغير ذلك هي من صميم الإبادة الجماعية.

التطهير العرقي جزء من الإبادة الجماعية. وقد تكون عمليات التطهير في حالات عديدة مرافقة لمجازر ترتكب ضد الأقلية المستهدفة، يذكر أن هذا المصطلح قد درج استخدامه بعد سنة ١٩٩٠ خلال عمليات التطهير العرقي في يوغوسلافيا السابقة ومذابح رواندا. وبموجب قرار رقم ٧٨٠ من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، تم إنشاء لجنة لتعريف التطهير العرقي. وحسب صياغة اللجنة يعرف التطهير العرقي بأنه «مخطط للتخلص المتعمد من سكان إقليم معين لأشخاص من مجموعة عرقية معينة، وذلك باستخدام القوة أو التخويف حتى تكون تلك المنطقة متجانسة عرقياً، وقد اعتمد التعريف على العديد من التقارير التي تصف السياسات التي تم تنفيذها في يوغوسلافيا السابقة «عمليات التطهير العرقي» باستخدام وسائل القتل والتعذيب والاعتقال التعسفي والاحتجاز والإعدام خارج نطاق القضاء والاعتصاب والاعتداءات الجنسية وترحيل السكان المدنيين بشكل قسري. كانت يوغوسلافيا في عهد مارشل تيتو توصف بجنة الشيوعية التي أتت في حيز الوجود نتيجة من الصراع الطبقي. ولكن التطورات اللاحقة أثبتت بطلان تلك النظرية؛ حيث احتل مكانها الصراع العرقي بين القوميات المختلفة. وجدير بالذكر أن الدكتور علي عزة بيغوفيتش المفكر الإسلامي الكبير الذي انتخب فيما بعد رئيس البوسنة كان يذكر «الصرب» بالعصر الذهبي الذي عاش فيه المسلمون البوسناك والمسيحيون الصرب

متسامحين، بينما كان قادة الصرب المسيحيين الأورتودوكسيين أمثال رادوفان كاراديتش يبتون سم الكراهية نحو البوسناك والكروات. ويعود سبب هذا الفارق إلى التصور الإسلامي الواسع عن الوطنية الذي يتبناه بيغوفيتش خلافاً عن فكرة الدولة القومية (Nation State) الضيقة الرافضة للتعددية التي كانت تسيطر على عقلية كاراديتش. وقد رأينا الروس في ذلك الوقت يؤيدون الصرب لأنهم كانوا ينتمون نفس الكنيسة الأرتودوكسية التي ينتمي لها الصرب.

وفي ظل التطهير «الاثني» واسع النطاق الذي رافق الحرب في البوسنة والهرسك إبان ١٩٩٢-١٩٩٥ اضطرت أعداد كبيرة من مسلمي البوسنة والكروات البوسنيين إلى الفرار من منازلهم وتم طردهم على يد صرب البوسنة، وقد شملت الأساليب المستخدمة خلال حملات التطهير العرقي في البوسنة أساليب العنف ووسائل مستلهمة من الإرهاب ضد السكان المدنيين من مجموعة عرقية أو دينية مختلفة من مناطق جغرافية معينة. ومن أمثلة التطهير العرقي حرب الصهاينة ضد الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٧-١٩٤٨ وما جرى في إفريقيا الوسطى وما يجري الآن في ميانمار ضد السكان المسلمين في منطقة «أراكان».

«الهولوكوست»، و«أوشفيتز»، والمحرقة... كلمات مشهورة ترتبط بمجازر اليهود سمعناها كثيراً. ولكن قلما سمعنا كلمة: بوراميس، وساموداريين، وهما مصطلحان يصفان إبادة الفجريين الرحالة التي تمت في أوروبا من قبل النازيين. لما احتل النازيون شرق أوروبا أقاموا فيها معسكرات لإبادة الفجريين جماعياً. وفي الفصول المتبقية من هذا الجزء نقرأ الحكايات المرعبة عن إبادات جماعية جرت في كامبوديا في عهد بول بوت الشيوعي المتطرف وما قامت به اليابان في «نانجينغ» في الصين، ومجازر سونجور المنغوليين من قبل ملوك كوينج في الصين، ومجازر السكان الأوائل التي قام

بها البيض في أمريكا... وهلم جراً. وانطلاقاً من هذا المدخل، يخوض الكاتب إلى مشهد الهند من إبادات القرن التي حدثت في «نيلي» في ولاية أسم، و«دلهي» عاصمة الهند، وولاية «غوجرات» في عهد حكومة مودي رئيس الوزراء الحالي. والسيخ هم كانوا ضحية الإبادة في دلهي بينما المسلمون هم كانوا ضحية الإبادة في «نيلي» و«غوجرات». حين قام أحد الحراس من السيخ باغتيال رئيسة الوزراء إنديرا الغاندي انتقاماً من اقتحام شرطتها معبدهم المقدس لإخضاع «بيندران والا» رئيس منسقي ولاية «بانجاب»، ثار غضب أتباعها في دلهي. الاضطرابات التي تفجرت إثر هذا الواقع والمجازر التي تبعتها في عام ١٩٨٤ كلها كانت تحت قيادة بعض الشخصيات المهمة في حزب المؤتمر الحاكم آنذاك. وملاحظات الكاتب بنقل المحللين السياسيين أمثال «نانديتا هاكسار» و«تشاران سينج» و«جارنايل سينج» عن مجازر جالية السيخ التي قامت بها الأحزاب العلمانية ذاتها لها وزن خاص في الهند المعاصر. قد ورد في كتاب «مانيشا سيتهي»، الذي تم استعراضه في عدد يناير من ملحق «مراجعات»، ما قام به رئيس شرطة ولاية «بانجاب» من الممارسات الوحشية ضد السيخ. أما مجازر «نيلي»، فقد مضى ٣٤ سنة بعد حدوثها، وكان ذلك في يوم الجمعة الثامن عشر عام ١٩٨٣. ربما لا يذكرها أحد الآن. القوات الهندوسية المتطرفة أحرقت جميع بيوت المسلمين بعد أن حاصرت القرى في منطقة نيلى لكي لا يكون لهم ملجأ ينقذهم ثم قتلت أكثر من ٣٠٠٠ شخص. تقرير «قمسيون تيفاري» الذي قام بالتحقيق عن قتل نيلى الجماعي لم تكشف عنه الحكومة حتى الآن.

القتل الجماعي في غوجرات أثار -ولا يزال- جدلاً كبيراً في داخل الهند وخارجها. وفي قضية رفعتها امرأة تسمى بلقيس راني ضد من اغتصبها جماعاً، ثم قتل جميع أعضاء أسرتها أثناء اضطرابات غوجرات، حكمت المحكمة في الشهر الماضي بالسجن مدى الحياة على هؤلاء المتهمين، كما عوقبت «مايا كودواني» الوزيرة في مجلس وزراء مودي لمشاركتها في المجازر. ولا تزال في المحاكم قضايا رفعها ناشطو حقوق الإنسان وتنتظر إصدار حكم المحكمة. وقد جعل المؤلف كتابه موثقاً بمراجع مُعتمدة، ومزوداً بصور فوتوغرافية، ومذيلاً بقائمة من الكتب للقراءة الإضافية.. وليس له سابق في الموضوع في لغة مالايالام.

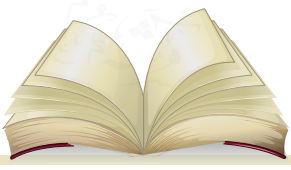
- الكتاب: «إبادات جماعية».

- المؤلف: كليم.

- الناشر: ThejasBooks, Nallalam, Kozhikode, Kerala, India ، بلغة مالايالام.

- عدد الصفحات: ٢٢٨.

* باحث ومستعرب هندي



«الإصلاح الفاشل: التفكير السلفي وتجديد الإسلام».. لمحمد سمير مرتضى

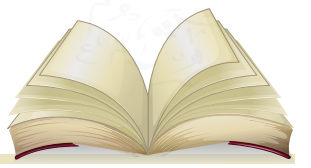
رضوان ضاوي *

جاء كتاب الباحث الألماني من أصل باكستاني محمد سمير مرتضى «الإصلاح الفاشل: التفكير السلفي وتجديد الإسلام»، لكي يُقدّم للقارئ الألماني صورة عن تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام؛ من خلال عرض نقديّ للحركات الإسلامية؛ مما يُعطي هذا القارئ ويحقق له رؤيةً وفهماً عقلائياً لعملية الإصلاح التي عرفها الفكر الإسلامي. ويعتقد المؤلف أن تحليلاً مؤسّساً على السياق التاريخي هو وحده الكفيل بإعطاء جواب مناسب. ويتكوّن الكتاب من مُقدمة وفصلين مطوّلين. وكلُّ فصلٍ مذيّلٌ بمجموعة من العناوين التي تطرح أسئلةً أساسيةً وتعالجها. وعلى مدار الفصل الأول -وهو بعنوان «الإسلام لا يحتاج لأي إصلاح»- وضع المؤلف في حسابانه مجموعة من آراء مفكرين وجماعات إسلامية ومنظرين لهذه الجماعات، ودعواتهم للإصلاح، ورؤيتهم الخاصة له.

تحت مسمى السلفية هم علامة على البحث عن التغيير. وكعلاج من مرض التقليد الذي لا تزال الأمة تعاني منه يقترح هؤلاء المجددون خطاباً نقدياً عن مسلمات الأمة الإسلامية. وتدعو السلفية كعلاج لتخلف الأمة ومشاكلها، إلى العودة للقرآن. وتتحدث السلفية الحرفية عن معنى الإسلام الحقيقي الذي يعود للأجيال الثلاثة الأولى في مكة. وغالباً ما ترمي هذه الجماعة باقي الأمة بأنها بعيدة عن الإيمان. ومن مفاهيمها الشرك والتوحيد والتكفير، وهي تريد العودة بالأمة إلى المجتمع الإسلامي في مكة وقت الدعوة النبوية، وتنظر إلى التطور التاريخي للإسلام وانقسامه إلى مذاهب سنية وشيعية، وتكوين المدارس الإسلامية والشرعية في الإسلام السني باعتباره انحرافاً عن الإيمان الحقيقي الذي يمثلونه، فالحقيقة غير قابلة للقسم؛ وبالتالي الصوفية هي بدعة، والإسلام الشعبي الخرافي بدعة. وقالت إن كل آية من القرآن لا تحمل إلا معنى واحداً ولا تجيز أي مجال لتعدد التفسير. أما الوهابية فقد نشأت في رقعة لم تتأثر بالاستعمار، أو بالاستشراق الغربي، إلا أن الأمة الإسلامية كانت توجد في حالة تقليد وفي حالة تفسخ. وانتشرت أفكار الوهابية التي تجنح إلى تكفير كل من يخالفها من خلال فكرها المتشدد. وفي بداية القرن التاسع عشر، انبثقت السلفية الإصلاحية من داخل حركة السلفية والوهابية، وتقول السلفية الإصلاحية: إن الانغلاق الضكري للمذاهب، والتقيّد بالتقليد، والإسلام الشعبي الخرافي، كلها عوامل تسهم في تخلف الحضارة الإسلامية، ويتوجب على العلماء أن يتجنبوا التقليد، والحفظ الآلي في الدروس، كما يجب عليهم تشجيع الفكر المستقل، وامتلاك قدرات على التفسير. ويمكن استخلاص ما يعنيه الإصلاح هنا؛ فهو عبارة عن محاولة إدماج المسلم في الحياة المعاصرة الحديثة عبر الاحتكام للفكر العقلاني؛ حيث يتوجب تفسير الشريعة على ضوء مشاكل العصر، وهذه هي وظيفة الفلاسفة والمفكرين وعلماء الدين مثل الأفغاني ومحمد إقبال ومحمد عزيز لحبابي ومحمد عبدو، ومحمد رشيد رضا، وعلى عبدالرزاق، وجواد سعيد، وقاسم أمين، ومالك بن نبي، ومراد هوفمان.

ويخصص الكاتب الحجج التي أسهمت في انحطاط العالم الإسلامي، ويقول إن سبب انحطاط العالم الإسلامي، هو أنه وبعد تدمير مراكز الحضارة الإسلامية ببغداد ودمشق، وبعد وفاة العالم المجدد ابن خلدون، حصلت عملية تجفيف من الداخل اختصاراً لأرثوذكسية معادية للعقل وللحرية والفلسفة، فجمدت عشية النهضة الإسلامية تطور علم في العالم الإسلامي. وبداية من القرن الثالث عشر ازداد هذا التوجه قوة بسبب دوغما مفهوم البدعة. وفي رأينا أن البدعة في جوهرها تمنع التجديد في مضمون الإيمان الإسلامي وفي محتوى عبادة الله. كما نعتقد أن رافضي التجديد يدعون بأن البدعة هي ما لا يعتمد على القرآن والسنة. هذا التخوف يجعل المعرفة الجديدة التي تم التوصل إليها عبر الفلسفة جالبا لعداء كبير للفلسفة وللعلم؛ وبالتالي فعقيدة البدعة هي سلاح ضد التقدم، كما يقول مراد هوفمان، والنتيجة هي أن العالم الإسلامي قد فوت على نفسه الإصلاح والدخول في الحياة المعاصرة، فنتج عن هذا حضارة إسلامية متعبة في مقابل أوروبا المتجددة من خلال الحداثة. ويتميز هذا الكتاب بحسن انتقاء الشواهد والنماذج؛ مثل: نموذج المستشرق الألماني توماس باور الذي أعلن أن العلماء المسلمين الكلاسيكيين قد اعترفوا بالتعدد ومارسوه على مستوى المؤسسات. وكان توماس باور قد انتقد هذا الوضع، فكتب يقول: إن هناك أيديولوجية متداولة في الشرق والغرب موروثية عن الاستعمار الأوروبي مفادها أن العالم الإسلامي كان يعيش منذ القرن العاشر والحادي عشر في حالة تأخر وجمود إن لم يكن في جهل عام. ويرى أن على ممثلي نظرية التخلف ومن يريد الاشتغال بالفقه الإسلامي أن يترك سطوة العصور السابقة خلف ظهره ويبحث هنا حيث سادت علوم الإسلام حتى وقت قريب. تعد السلفية حركة إصلاحية خرجت في القرن التاسع عشر من رحم الإسلام السني. وقد تنوعت واختلفت فروع السلفية في المضمون، ويمكن الحديث عن أربعة فروع هي: السلفية الحرفية، والوهابية، والإخوان المسلمون، والسلفية الإصلاحية. إن العديد من الإصلاحيين والحركات الإصلاحية التي ظهرت في العالم الإسلامي

عالم الدين عادل تيبودور خوري نشر كتاباً له في العام 1991، جاء عنوانه على شكل سؤال؛ وهو: ما الذي حدث في العالم الإسلامي؟ وبالنسبة للباحث الألماني من أصل تركي نافيد كرماني، فلغة القرآن نزلت بشكلها النهائي البشري في لغة مفتوحة على التأويل الذي يجب أن يباشره المؤمنون. ويتفق نافيد كرماني مع الفكر الإسلامي محمد إقبال في القول إن القرآن يتفجر عنه عالم جديد؛ ويقول محمد إقبال إن التقليد هو تعبير عن تعب الحياة وفقدان الرغبة في الإبداع الخلاق، والنتيجة هي: انحطاط وجمود فكري واجتماعي أصله اشكالية الارتباط بالماضي والتقليد. ومحمد إقبال يؤمن بأن الكتاب المقدس يفتح للناس العديد من نوافذ التفكير، وقد عبر محمد إقبال عن هذه الفكرة في قصيدة رائعة يقول فيها: انهض واصنع عالماً جديداً... انظر إلى داخلك وإلى القرآن... في آياته مئات العوالم... عالم واحد يناسب عوالم متعددة... والمؤمن هو آية الله... ينزع العوالم عنه كما ينزع ملابسه... عندما يتقدم عالم على صدره.. إنه هو القرآن الذي ينفجر عنه عالم جديد. ويبدو لي أن إغفال الباحث لمجهودات الفكر المغربي محمد الجابري غير مبررة، خاصة وأن هذا العالم قد استوعب جيداً فكرة محمد إقبال، ولهذا نراه قد ختم حياته العلمية بدراسة تحدث فيها عن فهم القرآن وليس عن تفسير القرآن مع مراعاة كون الفهم والتأويل يضمنان جزءاً من الذاتية. لم يرغب الكاتب في حصر كتابه في زاوية منظري الحركات الإسلامية العرب فقط، بل ناقش في كتابه أفكار الفلاسفة والمفكرين الإسلاميين والفقهاء ومنظري الحركات الإسلامية ودعاة الإصلاح والتجديد؛ سواء كانوا عرباً أو أجانب، وسواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، وسواء أكانوا مقيمين في البلدان العربية والإسلامية أم مقيمين في ألمانيا. لهذا؛ نراه يستعين برأي محمد عبدو، الذي أجاب عن مسألة تحريم التماثيل والصور بالقول إن الحداثة اليوم لا غنى لها عن الصور في العروض العلمية، وهذا لا علاقة له بالأهداف الدينية، ويجب أن يُنظر إليها بصفاتها وسائل علمية تعليمية. ونعتقد أن المسلمين ما زالوا يجادلون حتى اليوم في هذه المسألة، ويطرحون السؤال: هل التصوير جائز أم حرام ويدخل ضمن مجال منع الصور؟



ولم تحدثنا عن كيفية تحقيق إسلام ليبرالي حتى اليوم. ويواصل الكاتب كلامه عن عدم قدرة دعاة الليبرالية في تحديد المفاهيم بدقة، كما أن الاتحاد الليبرالي الإسلامي ومنذ تأسيسه تحدث عن ١٥٠ عضواً فقط أغلبهم غير مسلم، ولا ننسى أن هذا الاتحاد لم يتم تأسيسه في إطار مؤسسة إسلامية.

وفي هذه الفقرة التي عنوانها الكاتب بـ«القرآن رسالة تويتير إلهية»، يتناول المؤلف بالدراسة والتحليل مسألة تعدد القراءات. ويعطي مثالا من خلال سورة «الكافرون» التي يرى فيها ضمنا لحرية التدين. ولكن هل نملك لكل سورة تأويلا؟ هل نملك لكل آية مصدرا ثانويا يوافق القراءة التاريخية السياقية؟ يحضر السياق التاريخي لكل آية مما يجعل الوصول إلى فهم هذه الآية متاحا، حين نأخذ بعين الاعتبار ذاتية المفسر. لهذا؛ لا يمكن أبدا إعطاء منهجية تأويلية منفردة، بل قراءة سياقية تاريخية إلى جانب طرق عديدة، يمكنها أن تتكامل وتفتح نوافذ للتفكير. ويجب على مفسر القرآن الاعتراف بذاتية تأويل النصوص وعدم ثبات التفسير. يقول عزيز لحياي: «ليس القرآن هو الوحي، بل الوحي هو ما يكتشفه المؤمن كل مرة، حين يقرؤه».

ويستمر المؤلف في طرح الأسئلة النقدية، ويدير عليها مجمل ردوده؛ ومن بينها سؤاله الذي جاء على هيئة عنوان لفقرة من كتابه: «من يتحدث من أجل الإسلام؟». إن الإسلام ليس دين فرق، بل هو دين أمة. والفرق تقسم الأمة، والجماعات تطوّر دائما دينامية شوفينية خاصة، والمسلم هو عضو في الأمة فقط، ويجب أن يعمل من أجلها ومعها بغية العمل على خير الأمة؛ ففي الأمة وبواسطة الأمة ومن أجل الأمة يجب أن نقرر كيف يفهم المسلم الإسلام، وما هي امتدادات التفسير التي تتيحها المصادر؟ وما هي بالتالي طريقة العيش المرتبطة بها؟ وهذا الأمر يحتاج شجاعة في تكوين الرأي والرغبة الاستطردية، ويجب على الأمة أن تكون فضاء يوفّر إمكانية النقاشات المبنية فقط على الحجج العلمية.

وأخيرا، يعتقد المؤلف أن الربيع العربي يُعطينا درساً، خاصة في مصر، بأن الديمقراطية الوظيفية وما يرتبط بها من تعامل انعكاسي مع الدين مرتبطة بالمظاهر الاقتصادية للمواطنين. فرغم كل الانتقادات لسيد قطب، فإن ما قاله صحيح بخصوص المعدة الفارغة التي لا يمكنها أن تهتم بالدين أو بالثقافة؛ لأن صاحبها مشغول بتأمين حاجياته الإستراتيجية وتأمينها. وإلى جانب الزكاة، يجب على الدولة إدراك كل الوسائل الضرورية من أجل ممارسة سياسة توزيع عادل للثروات؛ «المعدة التي تعاني من الجوع لا تعرف أي معنى سام».

إن من مميزات هذا الكتاب اطلاع مؤلفه على عشرات الفلاسفة والمفكرين والنقاد، وعلى المصادر الأولى للإسلام، وتقديمه لنا مجموعة من الآراء لمفكرين ألمان يصعب على المتلقي العربي الاطلاع عليها بسبب عامل اللغة، ولعل ترجمة منصفة لهذا المؤلف المهم تجعل استقبال هذا المؤلف يفي بالغرض من تأليفه.

- الكتاب: «الإصلاح الفاشل: التفكير السلفي وتجديد الإسلام».

- المؤلف: محمد سمير مرتضى.

- الناشر: دار هيردر، ألمانيا، ٢٠١٦م، باللغة الألمانية.

* باحث في الدراسات الجرمانية - المغرب



ومن وجهة نظر الكاتب، يعد جمال الدين الأفغاني هو مارتن لوتر الإسلام، خاصة من خلال جداله مع المستشرق الفرنسي أرنيست رينان الذي توفي سنة ١٨٩٢. والقصد من إثارة هذه الفكرة في رأينا هي اعتبار تجربة المسيحية المعادية للإسلام هي الحل الأنسب بالنسبة للإسلام اليوم؛ حيث إن أوروبا مدينة للإصلاح الديني الذي فتح أبواب الغرب على العلم والتقدم والتفكير النقدي. غير أن الأفغاني قال إن الإسلام أصغر من المسيحية بـ ٦٠٠ عام، وبالتالي يحتاج لوقت كاف لكي يصل إلى ما وصل إليه الغرب، ولكن لا يزال هناك أمل في أن يصل المسلمون في يوم ما إلى الحداثة الغربية. وكان محمد إقبال قد تطرق أيضا لنتائج الإصلاح المسيحي على الغرب، ورغب في تجاوز سلطة العلماء والتقليد؛ فالسلفية تزيد من الاعتماد على الكتاب، وتيار الإصلاح يريد إصلاحا نسقياً ممارساً للدين في العالم والحياة عبر الرجوع إلى الكتاب وحده. وهذا معناه رفض التجديد والابتكار والإصلاح.

الإسلام يحتاج شيئا مغايرا

يبدأ المؤلف الفصل الثاني والأخير من هذا الكتاب بطرح تساؤل مهم؛ وهو: كيف يمكن أن نعمل على القطيعة مع التقليد في الفكر الإسلامي؟ ويجب المؤلف بأن الأمة لا تحتاج لإصلاح؛ فقد عاشت لتوها تجارب فاشلة. ويقول المؤلف إن الجواب جاء في مفهوم الإسلام الليبرالي في مقابل الإصلاح الديني.

وكانت لمياء قدور قد استعملت في رمضان ٢٠١١، في مقال لها بصحيفة جنوب ألمانيا، مفهوم الإسلام الليبرالي، ووضعته في مقابل مفهوم الإسلام المحافظ. ولمياء قدور هي نائبة في الاتحاد الليبرالي الإسلامي في ألمانيا، وكانت قد انتقدت محافظي المذاهب الأربعة في المجلس الاستشاري لدروس الدين المكوّن من ثمانية أعضاء في نوردهاين فستفاليا في ألمانيا. وقد أعلن الاتحاد الليبرالي الإسلامي عن أجندته السياسية التي ستفشل فيما بعد؛ قد أعلن هذا الاتحاد أنه يمثل الأغلبية الصامتة للمسلمين، ويهدف لقيادة المؤمنين في الطريق إلى التغيير.

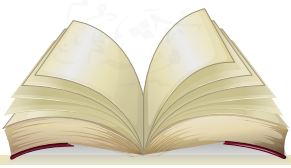
ويقول الكاتب إن لمياء قدور لم تحدد في أي موضع من كتاباتها معنى الإسلام الليبرالي أو الإسلام المحافظ،

يُتخذ المؤلف موقفاً نقدياً من طروحات دعاة الإصلاح؛ فقد كان هدف هؤلاء الدعاة في الإصلاح هو التركيز على رسالة القرآن الأصلية. كان الإصلاحيون مقتنعين تقريبا بأن تجديد الإسلام سيجعل المسلمين في النهاية يقدمون أفضل ما لديهم للإنسانية من خلال عملية تركيب بين الدين والحداثة. وربما لهذا السبب حذر محمد عبده من أن يصبح نص القرآن صنما معبوداً، حين ينزع المرء من الوحي سياقه التاريخي كما فعل الوهابيون. وطرح محمد عبده فكرة جديدة وهي في جوابه عن السؤال الذي طرحه: كيف يمكن للعلماء أن ينتظموا في الحداثة، لكي يكونوا متحررين من التبعية السياسية؟ يجب أن يكون فهم الإسلام إنسياً؛ أي «ذا صبغة إنسانية». لهذا؛ نجد مفكري السلفية الإصلاحية منفتحين على مواضيع مثل حقوق الإنسان وحقوق المرأة وتحريرها والديمقراطية والعلمانية.

وبالمقابل، قامت حركة الإخوان بمخاطبة عدد واسع من المصريين الذين يعانون من الحكم الأجنبي، واشتغلت الحركة على الأعمال الاجتماعية ودروس محو الأمية وأسست مدارس ونوادي للثقافة والرياضة، وكونت مشاريع اقتصادية حتى إنها أوصلت الكهرباء للقرى. ولم يهتم الإخوان بمفهوم الخلافة، فقد آمنوا بفكرة الدولة العصرية والحديثة؛ حيث الوطنية الإسلامية مبنية على الإيمان الشامل بالله. وما ساعد الإخوان في تحقيق غرضهم هو معرفتهم بواقع المصريين. ومن المؤسف حقاً تحول فكر حسن البنا من بنية شمولية للإسلام إلى أيديولوجية شمولية يمكن أن تؤدي بالعالم الإسلامي للنتائج نفسها عند الاشتراكية الوطنية أو الفاشية بالنسبة لأوروبا. كما أن اختراع سيد قطب -أهم رواد السلفية الحرفية الأيديولوجية- لمفهوم الجاهلية الذي يقول إن المجتمع الإسلامي يوجد عليها، قد أساء كثيرا لشعبية الحركة.

ويواصل الكاتب حديثه عن أسباب فشل الإصلاح، ويقول إن ما أفضل مشروع السلفية الإصلاحية وسارع في انهزام الأمة وانحطاطها؛ السلفية من وجهة نظر الفكر العقلاني كما عند الغزالي ومحمد إقبال. وعند مالك بن نبي وعزيز لحياي اللذين مارسا نقدا فلسفياً وذاتياً من داخل السلفية؛ هو عدم قدرة هذا التيار الإصلاحية على فهم المجتمع الصناعي والحداثة الغربية. وبالتالي لم يجد للأستئلة ذات الطبيعة الاقتصادية أجوبة، كما أن الأيديولوجية أسهمت في إفشال المشروع الإصلاحية؛ ففهم الإخوان المسلمين الأيديولوجي للإسلام يدل عليه واقع تاريخ الإسلام في القرن العشرين حتى الآن. ففي ظل الانحياز الشامل للإخوان إلى الأيديولوجيا أراد هؤلاء منع انقسام المسلمين إلى مذاهب ومدارس دينية عبر فكرة جديدة للسلوك الاجتماعي من خلال قواعده الخمس: الله هدفنا، محمد النبي قدوتنا، القرآن دستورنا، الجهاد طريقنا، الشهادة في سبيل الله غايتنا. ويقول مالك بن نبي إن الإخوان هم الوحيديون من بين باقي تيارات السلفية الذين عملوا على إنزال برنامج اجتماعي.

أما المؤلف، فيعتقد أن رؤية حسن البنا عن الوطنية الإسلامية قد جلبت فكرة الاستحواذ على الفضاء الشامل في الفكر الإسلامي، ويمكن رؤية نتائج هذا الابتكار بوضوح حين ننظر إلى تجربتهم في الحكم: قمع الآخر وممارسة القمع. وهذا هو الفيروس الرابع وهو العنف، فمفهوم الجاهلية هو مفهوم تكفير يربط على الأمة الفتنة وسيلا من الدماء بين مختلف الفرق الإسلامية.



«نهاية الخيمياء: المال والصيرفة ومستقبل الاقتصاد العالمي».. لميرفن كينج

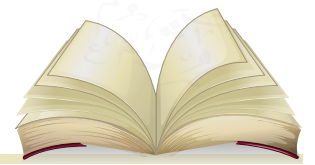
محمد السالمي *

تعدُّ الأزمة المالية العالمية الحدثَ الاقتصاديَّ الأبرز خلال العقدَيْنِ الماضيين؛ حيث استطاعتْ هذه الأزمة كشف عيوب هذا النظام المالي الكبير، كما أنَّها سلَّطتْ الضوءَ على النظريات الاقتصادية القائمة، وطرحَت تساؤلاً حول إمكانيتها في تفسير الظواهر الاقتصادية، وعن إمكانية تحديثها. نشرت العديد من الكتب والدارسات حول هذه الأزمة، وكشف تداعياتها. ولكن في هذه الحالة فالأمر مختلف. فكتاب «نهاية الخيمياء: المال والصيرفة ومستقبل الاقتصاد العالمي»، هو من تأليف اللورد ميرفن كينج، والذي شغل منصب الرئيس التنفيذي لبنك إنجلترا في الفترة من ٢٠٠٣ إلى ٢٠١٣ الذي تعامل مع الأزمة المالية في ٢٠٠٧-٢٠٠٨؛ مما منحه مقعداً محورياً في الأزمة المالية، وربما قدراً من المسؤولية عنه. فهذا الكتاب ليس بمذكرات، وإنما يطرح بعض الأفكار لإصلاح النظام المالي العالمي. مشيراً في المقدمة إلى أن المذكرات تميل إلى أن تكون تحت عنوان فرعي: كيف أنقذت العالم. قبل انخراط اللورد ميرفن كينج في بنك إنجلترا، عمل كمحاضر في أرقى الجامعات مثل كامبريدج، وبرمنجهام، وهارفرد، ومعهد ماساشوستس للتكنولوجيا، ويعمل حالياً في مدرسة لندن للاقتصاد. في كتابه هذا، يُعطينا نظرة ثاقبة للأزمة باعتبار كينج أحد اللاعبين الرئيسيين في الأزمة المالية. يتمحور كتاب كينج على أربعة عناصر: عدم التوازن، وعدم اليقين الجذري، ومعضلة السجين، والثقة. وتتمثل أطروحته الرئيسية في أن فشل الاقتصاد في مراعاة دور هذه الأفكار الأربعة بشكل صحيح هو ما دفع الاقتصاديين، ومن ضمنهم أولئك الذين في البنك إلى الفشل في منع الأزمة المالية.

النتائج بطريقة غير معروفة؛ وبالتالي ليس هناك طريقة موضوعية لتحسين القرارات. ويستند المؤلف إلى هذه الفكرة، ويناقش كيف يمكن لآليات السوق الحديثة أن تنسق النشاط الاستثماري في ظل هذا النوع من عدم اليقين، وتستخدم الطلب الطويل على النفط كمثال على ذلك. كما يقضي المؤلف وقتاً في مناقشة دور المصارف في تحويل النضج إلى مشاريع طويلة الأجل محفوفة بالمخاطر عن طريق الاقتراض من الودائع قصيرة الأجل. هذه العملية وصفها المؤلف بأنها الخيمياء المالية. يناقش المؤلف كيف نمت المخاطر في القطاع المصرفي مع توجه نظامنا لتوجيه المخاطر نحو اتخاذ نفوذ متزايد. وإضافة إلى ذلك، أدت المعدلات المنخفضة على المدى الطويل إلى تفاقم أزمة الإقراض التي يبدو أنها تحدث. وذكر المؤلف كيف يتم دعم البنوك الحديثة وحجمها الهائل من قبل سياسات مقرض الملاذ الأخير من قبل البنوك المركزية التي تدعمها، وبين كيف أن البنوك المركزية قلقة جداً بشأن التداعيات المالية للسماح للنظام يواجه فشل المؤسسات. تطرَّق كينج لموضوع اختلال التوازن بين

عن دور وتطور البنوك المركزية في السنوات ٢٠ الماضية. ويحدد المؤلف بلغة واضحة كيف تعمل البنوك المركزية والنظريات الاقتصادية التي ترسم تلك العمليات وكيف تغيرت تلك النظريات وممارسة السياسة النقدية مع تغير الظروف. ويوضح المؤلف كيف أن دور مقرض الملاذ الأخير يتسم بطابع مختلف تماماً اليوم مقارنة بالسابق، ومدى عدم مراعاة طبيعة عدم اليقين الاقتصادي بشكل مناسب عند التفكير في حساب المخاطر. هذا الكتاب يعطي وصفاً واضحاً للتحديات الاقتصادية اليوم وبعض الصفات السياسية التي ستكون حلاً جزئية لبعض المخاطر الأخلاقية والتحديات التي نواجهها. فهذا الكتاب يُعطي القارئ الكثير من الخلفيات لبعض النظرية الاقتصادية التي تدخل في دور البنك المركزي في الاقتصاد. يناقش المؤلف عرض النقود، والخدمات المصرفية الاحتياطية الجزئية، والتقدم في الخدمات في البنوك المركزية. كما تطرق المؤلف أيضاً لطبيعة عدم اليقين التي نواجهها في حياتنا اليومية. وهذا يتجلى في النظر في مفهوم عدم اليقين للعالم الاقتصادي فرانك نايت؛ حيث توزيع

يبدأ كينج بطرح تساؤل عام: ما هو المال؟ والإجابة لا تختلف عن تعريف الاقتصاديين للمال. أولاً وقبل كل شيء، جميعنا نحتاج المال للحصول على السلع والخدمات. وفي رأي الاقتصاديين: لكي نطلق على الشيء مالاً يجب أن يكون مقبولاً من الجميع كوسيلة للتبادل، ويمكن استخدامه أداة للتسعير، وأنه يحمل قيمة تسعيرية. يرى البعض أن المال يجب أن يقوم على شيء حقيقي وملمس، مثل الذهب على سبيل المثال. ولكن كينج يبين أن مفهوم المال واسع ويتضمن تحته عدة أصناف؛ مثل: الأوراق النقدية والذهب، وقد يتضمن أيضاً سائير مارلبورو وهو المعمول به في السجون، والبتكوين إذا تضمن هذه العوامل. كما يرى ميرفن كينج أن المحرك الرئيسي للمال هو السلطة. فالسياسة هي إلى حد كبير ما يجعل اليورو عملة. كما أن البيان المشترك الذي أدلى به كل من المستشار ميركل والرئيس هولاند، يبين مدى التزامهم الكامل باليورو. ويظهر هذا جلياً في خطوات البنك المركزي الأوروبي في شراء ديون الحكومة الإسبانية والإيطالية أو ينظر فيها بنشاط. «نهاية الخيمياء» يُعطي وجهة نظر من الداخل



يكن المصرفيون قبل الأزمة المالية وأثناءها وبعدها مماثلين للسجناء غير القادرين على التواصل مع بعضهم البعض. ويؤكد الملك أنه حتى اليوم «، فإن البنوك الداخلية محاصرة في سياسة أسعار الفائدة المنخفضة بسبب الاعتقاد المستمر بأن حل ضعف الطلب هو اللجوء لمزيد من التحفيز النقدي. يرى كينج أنه يجب الخروج من معضلة السجين وذلك عبر فتح حلقات التواصل بين البنوك المركزية حول العالم من الصين والبنك الفيدرالي... وغيرها.

وفي نهاية الكتاب، قدّم كينج بعض الإصلاحات الاقتصادية لتعزيز الإنتاجية، كما تطرق لموضوع تحرير التجارة، لاسيما في الخدمات مثل التأمين، والاستشارات، وتحليل البيانات... وما إلى ذلك مثل استعادة مرونة سعر الصرف. كما يعطي كينج في «نهاية الخيمياء» خلفية غير مألوقة عن البنوك المركزية والسياسة النقدية. وأيضاً يعطينا نظرة تاريخية لبعض التيارات الفكرية التي تحرك الإجراءات السياسية وشرحا وافيا حول البيئة الاقتصادية الحالية والنظام المؤسسي في الأسواق المتقدمة. ويناقش المؤلف أيضاً ما يعتقد أنه قابل للحل في البنوك المركزية، وعلى وجه الخصوص، بعض جوانب المخاطر الأخلاقية والدعم الضمني، وما الذي لا يزال خطر الكينيتياني (الخطر الذي لا يمكن قياسه).

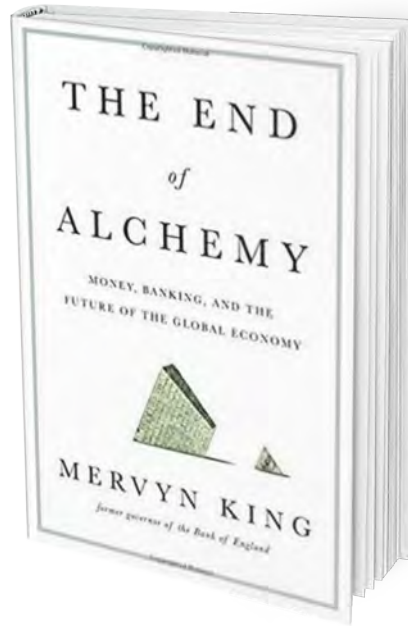
وعلى الرغم من الجدل الذي أثاره الكتاب، يظل كتاب «نهاية الخيمياء» قراءة مدهشة؛ حيث يعطينا محافظ بنك إنجلترا المركزي السابق صورة قاتمة لنظامنا المالي الحالي، ويخدمنا جميعاً عن طريق تذكيرنا بمدى هشاشة فهمنا للعالم دائماً، ومدى خطورته في التصرف كما لو كنا نعرف أكثر مما نقوم به. استطاع الكتاب جذب الأضواء لأن مؤلفه من صنع القرار خلال الأزمة.

– الكتاب: «نهاية الخيمياء: المال والصيرفة ومستقبل الاقتصاد العالمي».

– المؤلف: ميرفن كينج.

– الناشر: W.W.Norton & Company،
٢٠١٦م، باللغة الإنجليزية. – عدد الصفحات:
٤٤٨ صفحة.

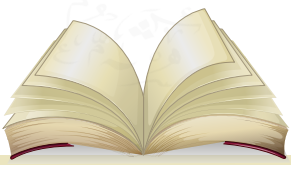
* كاتب عماني



يتفقون على أن كثيراً من التنبؤات الاقتصادية ما تكون خاطئة بشكل خطير، ولكن البعض يرى أن هذا لا يعتبر سبباً كافياً للتخلي عن أدوات التحليل التقليدية التي دعا إليها كينج. كما تطرّق كينج لنظرية الألعاب وضرب المثال الشهير والمسمى بمعضلة السجين. تبني نظرية الألعاب أن جميع اللاعبين ينظرون لمصالحهم الخاصة في المقام الأول دون الاهتمام بمخرجات اللاعبين الآخرين مع الأخذ بعين الاعتبار الخطوات التي يتخذها اللاعبون في اللعب. ويعرف كينج معضلة السجين بأنها «صعوبة تحقيق أفضل النتائج الممكنة عندما تكون هناك عقبات تعترض التعاون». فالسيناريو الذي تستند إليه معضلة السجين هو السيناريو الذي أنشئ صراحة للقضاء على فرصة التعاون. حيث يتم حجز المتهمين بزنازة منفصلة ويمنعون من الاتصال. وبالنظر إلى أوراق اللعب لدى المتهمين إما الاعتراف أو الصمت، فإنهم يختارون الاعتراف على الرغم من أنهم سيحصلون على أحكام أخف إذا بقوا صامتين. فلو قام المتهمون بالتعاون سيحققون أفضل النتائج ولكن الاهتمام بالمصالح الشخصية وعدم الوثوق باللاعب الآخر سيؤدي بهم في نهاية المطاف للسجن لفترة أطول. يرى كينج أن المصرفيين في البنوك المركزية قد استجابوا بطبيعة الحال للحوافز التي واجهوها خلال الأزمة المالية. لذلك؛ فإن جميع الفاعلين الرئيسيين في الدراما كانوا يتصرفون بمصلحتهم الذاتية – في ضوء تصرفات كل شخص آخر – وهكذا كانت النتيجة الجماعية كارثية. لم

العرض والطلب في الموارد المالية؛ حيث يعتقد الرئيس السابق للبنك المركزي أن غياب شروط التوازن هو أمر لم يعرفه الجميع، إلا ربما المصرفيين المركزيين. بحيث يرى أن عدم القدرة على توقع جميع الاحتمالات الممكنة قد توقعنا في أخطاء؛ بمعنى آخر أن الجميع من أسر، وشركات، وبنوك، وبنوك مركزية وحكومات مُعرّض للخطأ. والإشكال الذي يُطرح هو ما إذا كان لدينا مؤسسات قوية بما فيه الكفاية للتكيف مع تلك الأخطاء وتقليل عواقبها.

وبالنسبة للبنوك المركزية، تتمثل إحدى الوسائل في الحدّ من عدد الأخطاء عبر تقليل عدد القرارات التي يتخذها المصرفيون المركزيون. فلو نظرنا في «قاعدة تايلور»، التي اقترحتها عالم الاقتصاد الكلي جون تايلور، فهي إحدى الوسائل في تحديد كيفية قيام المصرفيين المركزيين بتعديل سعر الفائدة الاسمي على أساس البطالة والنتائج المحلي الإجمالي. فقانون تايلور تبني على اليقين: أن الأفراد والشركات يعرفون كيف سيتفاعل البنك المركزي مع البيانات الاقتصادية مقدماً. كينج ينتقد قاعدة تايلور، بحجة أنه لا توجد قاعدة خالدة من المرجح أن تبقى الأمثل لفترة طويلة، وأن البحوث الجديدة من شأنها أن تقوض أي قاعدة أعلن عنها. وهذا يفتقد للنقطة المركزية التي مفادها أن البنك المركزي القائم على القواعد سيصبح أكثر قابلية للتنبؤ؛ مما يحد من عدم اليقين في الاقتصاد. خاض كينج بشكل واسع في موضوع عدم اليقين الراديكالي، والذي يقصد به عدم التيقن العميق؛ لدرجة أنه من المستحيل تمثيل المستقبل من حيث جعل الاحتمالات قابلة للعلم وشاملة للنتائج. ويقول الكاتب كيف يمكننا خلق أسواق من السلع والخدمات التي لا يمكننا تخيلها في الوقت الحاضر؟ فهذا تحدّي مستحيل لاقتصاد السوق. كما هو المعلوم أن العالم يتضمن الكثير من «عدم اليقين الجذري». ولكن المشكلة تكمن في أن النموذج الاقتصادي يقوم على افتراض وجود مجموعة كاملة من الأسواق أو مصرف مركزي يتخذ قرارات تعتمد على نماذج تتضمن هذه الافتراضات على الأقل دون التفكير في النتائج المترتبة على التنبؤات بغياب هذه الأسواق. وقد دعا الاقتصاديون إلى الابتعاد قليلاً عن تحليل العرض والطلب، والتركيز على الأحداث الحاصلة. وفي المقابل، كثير من الاقتصاديين



«مع الهجرة من أجل القياس والنقاش والتعامل».. لفرانسوا هيران

سعید بوكرامي *

في فرنسا، تتلاحق مشاكل الهجرة بوتيرة متسارعة ومعقدة، كما أن النقاش حوّلها يتكرّر ويحرّف باستمرار، تغذيه دورات الحياة السياسية وعلى وجه الخصوص حمى سباق الانتخابات الرئاسية: (أزمة اللاجئين، الإسلام والعلمانية، الصفاء العرقي والثقافي والحضاري لأوروبا، الجنسية المزدوجة، التجمع الأسري، غابة كاليه..). قضايا لا تنتهي، يستغل فيها المهاجر استغلالاً أيديولوجياً مريباً؛ سواء في البلدان التي عرفت الهجرة منذ الخمسينيات والستينيات كفرنسا وبلجيكا وهولندا وألمانيا، أو البلدان التي قدم إليها المهاجرون منذ الثمانينيات كإسبانيا وإيطاليا والبرتغال. ورغم وعي الدول الأوروبية بحتمية جلب المهاجرين خلال السنوات المقبلة نظراً للخصائص الديموغرافية للقارة المهددة بالشيخوخة وانخفاض الخصوبة، إلا أنها لا تزال تعتبر المهاجرين وسيلة وأداة فحسب للإنتاج الاقتصادي، وليسوا كائنات بشرية تتميز بخصائص لغوية ودينية وثقافية، يجب الاعتراف بها والتعايش معها وتحويلها إلى مكون حضاري واجتماعي يساهم في تجديد دماء أوروبا. وهذا يتطلب تدبير تدفقات المهاجرين واعداد إجراءات قانونية وعملية تُسهّل عملية اندماج المهاجرين في مجتمعات تلك الدول التي يعاملون فيها معاملات فيها الكثير من التمييز والإقصاء في كل المجالات: السكن، والتعليم، والعمل، والحقوق الاجتماعية والثقافية.

وخلافاً للأفكار الشائعة على نطاق واسع، القائلة بأن وضع الهجرة في بلد ديمقراطي لا يخضع للفتنة الحاكمة إلا قليلاً، ولكنه في المقام الأول يكون نتيجة للعوامل الديموغرافية والقانونية والضغط الاقتصادي.

ويذكر فرانسوا هيران، عدّة مرات، على سبيل المثال، بالعدد المستقر منذ العام ٢٠٠٢ بـ ٢٠٠٠٠٠ تصريح إقامة، التي تم إصدارها سنوياً للمهاجرين غير الأوروبيين، وهذا الرقم مرتبط أقل بكثير بهجرة العمالة وحق اللجوء منه بالتجمع الأسري، والزواج المختلط واستقبال الطلبة الأجانب. بينما الواقع يعكس اضطرار الدولة إلى إظهار عدم الانغلاق عن بقية العالم، واحترامها للاتفاقيات الدولية التي تحمي الحياة الأسرية، ولولا ذلك لما تدخلت فرنسا في قضايا الهجرة. ولكن ما دامت «واقعا موضوعياً» يستدعي «الحياد الملتمزم والتوثيق الواقعي»، حسب تعبير الباحث، يجعل اليوم من المستحيل فهم رفض ظاهرة الهجرة أو السكوت عنها، هذا الموقف نجد من يدافع عنه ويجعله مشروعاً إستراتيجياً لبقاء فرنسا للفرنسيين، بينما البعض الآخر يدعو إلى إلغاء الحدود الوطنية لتتدفق دماء جديدة في عروق أوروبا العجوز.

ومن بين أجزاء الكتاب السبعة، يكرس هيران الجزأين الأولين من كتابه لسياسة الهجرة في فرنسا منذ وصول نيكولا ساركوزي منذ ماي ٢٠٠٢، وما طرأ عليها من تغييرات في وزارة الداخلية سواء خلال زيارته لساحة بوفوا أو خلال فترة رئاسته، أو تلك التي جاء فيها خلفه هولاند.

(إريك زمور)، داحضاً أطروحاتهم المتطرفة. وعلى طول ٣١٥ صفحة، يدافع فرانسوا هيران عن أطروحته المساندة للهجرة، قد يضجر القارئ من طول البحث وتعدد مباحثه، لكن إذا كان القارئ يعطي أهمية لقضية الهجرة أو يمنح القليل من الاهتمام لقضايا مستقبل أوروبا، فإنه بالتأكيد سيجد مساراً معرفياً ممتعاً وثرياً مصاغاً من تحليلات صلبة وأدلة مقنعة، بأسلوب واضح يجمع بين شهادة باحث سوسيولوجي مطلع ومعرفة ديموغرافية منفتح على العلوم الاجتماعية.

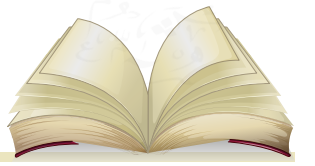
يلاحظ فرانسوا هيران في مُفتتح كتابه أن حصة المهاجرين من المغرب العربي وإفريقيا والشرق الأدنى والشرق الأوسط، زادت بشكل ملحوظ، وكذلك مظاهر الإسلام ازدادت في فرنسا على مدى العقود الأربعة الماضية. كما أن البحوث حول الهجرة أحرزت تقدماً كبيراً، والنقاش العام حول هذا الموضوع يستأثر بالرأي العام والإعلام، لكن ما زالت معلومات خاطئة كثيرة تمرر عن عمد ضد المهاجرين، يشير الباحث إلى أن بعض المذنبات أضحّت أسيرة أحكام قيمة أيديولوجية وإستراتيجيات سياسية مدروسة لجهات سياسية أو وسائل الإعلام؛ حيث يتم إقحام الهجمات الإرهابية وتدفق اللاجئين من الدول الفقيرة والمتوترة. رغم أن الهجرة هي واقع «موضوعي» و«دائم» ولم يتوقف منذ نشأة الإنسان، ولم يتوقف بعوائق وعراقيل إدارية وأيديولوجية، لهذا يجب أن تكون من بين الخيارات السياسية الأساسية كي تتمكن السلطة الوطنية من تدبيرها وفق حاجياتها الديموغرافية والاقتصادية. لأنه،

الباحث المتخصّص في قضايا الهجرة فرانسوا هيران، ينقل هذا النقاش إلى بحث ديموغرافي وسياسي، يعود إلى عهد ساركوزي، أي تسع سنوات من السيطرة على سياسة الهجرة في فرنسا، ولكن من أجل أي نتيجة؟ هل من أجل إجهاض سياسة الهجرة المفتوحة لصالح «الهجرة الانتقائية»، من ذوي الخبرة وبطريقة قانونية؟

يقول الباحث إن هذه السياسة الانتقائية في ميدان الهجرة تسعى لاستقطاب بعض المتخصصين في مجالات معينة من العلم والمعرفة وإغلاق الباب أمام الراغبين في الهجرة من ذوي الاختصاصات العادية. وهذا التمييز والإقصاء يفتح الباب أمام الهجرة غير المشروعة إلى أوروبا.

يُنَبِّه الباحث إلى أن فرنسا وحدها يعيش فيها بين كل أربعة أشخاص فرد من أصول مهاجرة أو أبناء مهاجرين. لهذا؛ تقوم تيارات سياسية متطرفة تحلم، بغلق المنافذ على المهاجرين والقفز على الحقوق الأساسية. باستغلال هذه المعطيات لزرع الرعب في نفوس الفرنسيين من خطر انمحاء كلي للعرق الفرنسي إذا سمح لسلطة سياسية معتدلة أن تراعي الشروط الإنسانية والقانونية في تعاملها مع المهاجرين.

ويشدد فرانسوا على ضرورة الانفتاح على معرفة المهاجرين وقضاياهم وخلفياتهم الثقافية، وتكييف القوانين مع جذورهم الأصلية؛ لأنه كلما تشدّدت القوانين ازداد التطرف الفكري من الآخر. يُحاول الباحث كشف الأخطاء الجسيمة لبعض السياسيين (مارلين لوبين في الصدارة)، وكاتب المقالات ومستشار وسائل الإعلام المثير للجدل



اللاجئين وتحليل الهجرة في برامج مرشحي الانتخابات الرئاسية في العام ٢٠١٧. ومن جهة أخرى لا تزال ظاهرة الهجرة تدرج ضمن تاريخها من خلال إبراز خصوصية الحالة الفرنسية مقارنة بدول أخرى مختارة بعناية مقصودة. لهذا، فإنها توظف خطابا لجذب انتباه المتخصص والإنسان الحريص على معرفة العالم بطريقة أفضل.

يُمكن القول بأن كتاب فرانسوا هيران يتميز تميزا كبيرا عن باقي الكتب الأخرى المتخصصة في تحليل ظاهرة الهجرة؛ لأن الكاتب يمنح الإحصائيات المستمدة من سجلات وتحقيقات مؤسستين لهما مصداقيتهما في الوسط العلمي مكانة ومصداقية. كما يبيّن بوضوح عدم جدوى سياسة الهجرة التي ينادي بها اليمين المتطرف، ولكن ما يمكن أن يلاحظ على بحث هيران أنه لا يعالج إلا بشكل عرضي النقاط العمياء في مشاريع الهجرة والاندماج في فرنسا، خاصة وأوروبا عامة؛ مثل: مشروع التنمية القصير المدى، أو ما سُمّي بسيناريو الحدود المفتوحة على الصعيد العالمي. يحظى هذا الموضوع حاليا بانتشار كبير في بعض البحوث حول الهجرة الدولية والجمعيات والدوائر النشطة في مجال الهجرة.

وكذلك سياسات مكافحة التمييز كانت تستحق أن تناقش بعمق أكبر، لكن هيران يلمح في خاتمة الكتاب أن هناك مسائل كثيرة لم يطلها البحث وهي من صميم قضايا الهجرة، ويمكن لجزء ثان من البحث أن يضيء هذه الجوانب ويتعمق فيها بالبحث والنقاش والحجاج مدعما أيضا ببيانات وإحصاءات جديدة تراكمت خلال السنتين الأخيرتين، بعد التحولات الجذرية والمفاجئة التي عرفها حوض البحر الأبيض المتوسط اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً.

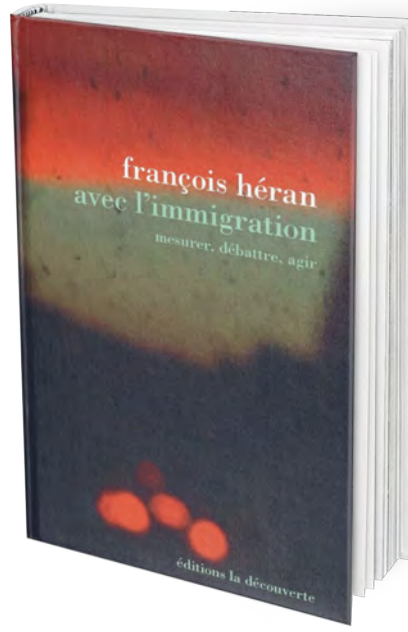
لا بُد من الإشارة في الأخير إلى أن فرانسوا هيران هو عالم في السوسيوولوجيا والديموغرافيا، أدار لمدة خمس سنوات (١٩٩٣-١٩٩٨) شعبة الدراسات الاستقصائية والدراسات الديموغرافية في المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية، ثم تولى إدارة المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية لمدة عشر سنوات من عام ١٩٩٩ إلى عام ٢٠٠٩. من بين مؤلفاته: عصور الهجرة بحث عن مصير الشعب الفرنسي. وكتاب تكوين الأزواج بحث من أجل سوسيوولوجيا للأسرة.

- الكتاب : «مع الهجرة من أجل القياس والنقاش والتعامل».

- الكاتب: فرانسوا هيران.

- الناشر: لاديكوفيرت، فرنسا، ٢٠١٧، باللغة الفرنسية.

* كاتب مغربي



«استبدال كبيرة» للسكان بسبب الهجرة غير الأوروبية. وبالرغم من ذلك، فإن هيران لا يدافع عن تصور واحد لمقاربة إشكالية الهجرة، بل يدافع الباحثين إلى الاهتمام بالإحصاءات والبيانات من طرف المتخصصين؛ لأنها ستسهم في جعل النقاش العمومي والاختيارات السياسية أكثر إيجابية. ومن الضروري أيضا أن يغني الحوارات البناءة بين الأطراف المعنية حتى لا تقع في أشكال مختلفة من الاختزال المتكرر باستمرار بمجرد الحديث عن الهجرة.

ويتألف القسم الأخير من ثلاثة فصول وخاتمة عامة، وتشمل معظم الموضوعات التي سبق الحديث عنها. عنوانه: «زمن الاندماج»، وتشير على نحو فعال إلى الصبغة والمحتوى. وإلى المعرفة الإحصائية، التي تطورت خلال العقدين الماضيين، مُستنتجا أن معظم السكان من المهاجرين يندمجون فعليا في المجتمع الفرنسي مع مرور الوقت، حتى وإن كانت لا تزال في بعض الأحيان تقدم فروقا ذات دلالة إحصائية بالنسبة للفرنسيين المزدادين بفرنسا، وذلك بسبب التمييز الذي يتعرضون له. لهذا السبب، يجب أن يفكر في الاندماج كإستراتيجية عمل مرتبط بالجسم الاجتماعي كله، بما في ذلك المهاجرين وأبنائهم والمقيمين لفترة طويلة. وهذا يفترض، كما يكرر فرانسوا هيران، أن تعتبر الهجرة قاعدة بيانات تؤلف حتما مجتمعا، بغض النظر عن أصل تدفقات الهجرة والقلق الذي تسببه لبعض الهيئات السياسية بالدرجة الأولى.

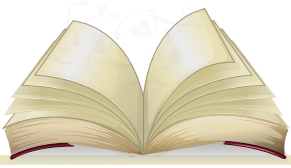
نجح هذا الكتاب في نهاية المطاف نظرا لتحليله المزدوج والبارع. لأنه من جهة، وفر عن كُتب معلومات دقيقة؛ لأن الباحث قريب ومُلم بالأحداث والتطورات حول موضوع الهجرة، كما تبرهن على ذلك الصفحات المكرسة لقضية

هذه الفترة عكست سياسة الهجرة التي استعملت وترجمت محدودية الإرادة السياسية وعدم فهمها لديناميات في العمل.

ومن بين الإجراءات الدالة على ذلك عدم تمكن السلطة من حظر التجمع الأسري، وتطبيق سياسة «الهجرة المنتقاة» وهذا يدل على الفشل الكبير الناجم عن عدم القدرة على فهم العوائق؛ بدءا من التكلفة التي يفرضها تطبيق القوانين الجديدة المنظمة للهجرة. وتحت ضغط الأحزاب اليمينية التي تقدم أطروحات غير واقعية وتدابير تتعارض مع المبادئ الديمقراطية. بالمقابل قدم اليسار في السنوات الخمس الماضية بيانات موضوعية عن تراجع الدولة عن مبادئها الأساسية. وبهذا الصدد، يقدم الباحث مجموعة من البيانات والإحصائيات المدعمة لأطروحة التراجع، مستندا في ذلك إلى المعهد الوطني للإحصاء والدراسات الاقتصادية، والمعهد الوطني للدراسات الديموغرافية.

تقدم الأجزاء الأربعة التالية، وبوضوح كبير، الفاعلين الأساسيين في الإحصاءات الرسمية حول قضايا الهجرة والرهانات السياسية التي يثيرها العمل بها. يقول الباحث: إن قليلا من الباحثين لهم وضع جيد لتقديم شهادة مطلعة ومعقدة عن إشكالات الهجرة؛ لهذا يعتبر إنجاز المستند إلى مرجعية علمية بحكم أنه كان المدير السابق لمعهدين متخصصين لمدة عشر سنوات. فهو إذن يعرف جيدا ظروف إنتاج البيانات الإحصائية، والتحفظات التي تفرضها الاحتياطات والتفسيرات التي يجب أن يخضع لها أي تقييم لوضع الهجرة.

يعود فرانسوا بخاتمة إلى الخلافات بشأن الإحصاءات عن أصول المهاجرين وأحقادهم «الإحصاء العرقي»، والذي تسبب له في غضب زميله الديموغرافي هيري في لوبرا واعتراضه على مجموعة من نتائجها. يعرض فرانسوا في هذه الحالة الشرط المزدوج الذي يضمن جدلا علميا، وهو «جزء من عمل الباحث» (كما في ص: ١٤٩) لكن يجب أن يبقى العمل في إطار أكاديمي وخاضع لبراهين علمية. مهما كانت العقبات في طريق الباحثين، وعلى الرغم من ذلك، فإن البيانات الإحصائية عن الهجرة زادت إلى حد كبير منذ ١٩٩٠ يذكر فرانسوا هيران بالاستخدامات السياسية التي تمكن المؤرخ جاك دوباكير من استغلالها، المعارض الشرس للتعداد الجديد والمجادل لإريك زمور المشهور بتأثيره على وسائل الإعلام. ومع ذلك، فإن البحث يقدم أدلة قاطعة، أن تحقيقات المعهد الوطني للإحصاءات والتوثيق الذي يهتم أيضا بالمهاجرين داخل السجون. الموضوع الذي هو أبعد من أن يعتبر «محظورا» كما يدعي البعض، بل يكشف عن غياب نظرية



«معاناة العلم: العالم والسلطة والمال والأخلاق».. ليو كلاين

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

مؤلف هذا الكتاب «معاناة العلم» الروسي ليو كلاين - ولد عام ١٩٢٧ - عالم شهير في الأثرية والأنثروبولوجيا واللغة والتاريخ وبقية في مجالات أخرى بحاجة إلى بضعة سطور لإحصائها. وإلى جانب لغته الروسية الأم، ينشر مؤلفاته باللغة الإنجليزية. لم يكتف هذا العالم الموسوعي بمساق علمي واحد، فعرف عنه سأمه من الوقوف طويلاً في محطة علمية بعينها؛ لذلك جعل من حجه بين العلوم سماتاً لحياته العلمية وديدنا لبحثه المعرفي. بدأ في حقل علم الآثار، وحصل بمجهوده الذي كرسه للقضايا النظرية لأسس المعرفة الأثرية على اعتراف المراكز العلمية حول العالم، وإلى جانب اشتغاله في الآثار، أشعل كلاين نقاشات حادة حول نقده لبعض المسائل العلمية وتشكيكه للصور النمطية الشائعة في العلوم الإنسانية. وفي غضون دراسته الجامعية، صاغ تقريراً ينتقد فيه العقيدة التي هيمنت آنذاك لمواطنه العالم الروسي نيكولاي مار التي قاربت بين النظرية الشيوعية لماركس وعلم اللغة، وأصرت على العلاقة بين اللغة ونوع النظام المجتمعي (نظام الرقيق المتخلف، البرجوازية المضرة أو الاشتراكية المتقدمة). وفي الستينيات، بادركلاين بجولة جديدة من النقاش حول دور النورمان في إنشاء الدولة الروسية القديمة، وأثبت وجود الاسكندنافيين في المناطق الشمالية لروسيا (كانت نسبتهم حسب نتائج كلاين تصل إلى أربعة عشر بالمائة)، وأيضاً الأصل الاسكندنافي لأول الأمراء الروس. في الثمانينات توجه كلاين إلى دراسة الملحمة الشعرية اليونانية «الإلياذة» وأثار تشكيكا حول وحدة النص وموقع مدينة طروادة الأسطورية؛ وذلك مثلما أشار إليها عالم الآثار الألماني هاينريش شليمان. في السنوات الأخيرة اكتسبت أنشطة كلاين وبحوثه في العلوم الإنسانية وفي الثقافة والتعليم طابعاً جديداً ينحو إلى أسلوب الصحافة العلمية والفكرية ويرتكز موضوعها على دراسة العلم في بعده الاجتماعي. وبعد عمر مديد قضاه في جادة العلم والثقافة، نجد أن صوت هذا العالم يزداد اقتراباً من روح العلم وجوهه الكوني، ونجد موضوعاته تختلف بين التدقيق على سلوك العلماء والتمحيص في علاقة العلم بالسلطة والتأكيد على أخلاقية العالم.

علومها، وبأنها لا تدخل في مصاف الدول العلمية العظمى. يكتب عن ذلك: «لا تدخل روسيا ضمن أفضل عشرين دولة في العالم من ناحية اقتباس علومها، ولا تتجاوز مقالات العلماء الروس في العلوم السلوكية والكمبيوتر وعلم الأحياء الدقيقة واحد في المائة من حجم الإجمالي العالمي، أي أنها غير مرئية (...). نتيجة لذلك تقلص تمويل العلوم، واختضت مدارس بأكملها في مجال الفيزياء والبيولوجيا والاستشراق. ويموت العجائز من العلماء ولا أحد ينوبهم فتقطع التقاليد. وبجانب ذلك نشأت مجموعة من الأكاديميين بشهادات مُشتراة، وهم الآن يسيطرون على القطاع العلمي ويفرّخون أشباههم. أما الشباب الأكثر نشاطاً فيغادرون إلى الخارج. ثمة مئتان وخمسون ألفاً إلى ثلاثمائة ألف منهم غادر البلاد خلال العشر/خمس عشرة سنة الأخيرة» (ص: ١٣١).

ويشترط كلاين لبناء مستقبل للعلوم في روسيا وجود التمويل الحكومي بالدرجة الأولى، ويؤكد أنه من المستحيل أن ينكب العالم على بحوثه حين لا يكفي راتبه لإطعام نفسه وعائلته، بالمعنى الحرفي لكلمة إطعام. وحين

تسليط سيف النقد لإلحاق الأذى بأشخاص أو مؤسسات بعينها، ولكنه يعرف الخلل ويقدم طرائق حلها.

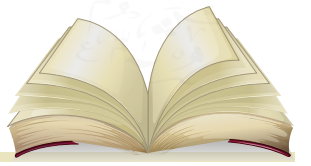
لقد شهد كلاين مراحل تطور العلوم الروسية، وإذا ما أخذنا سنة التحاقه بجامعة لينينجراد عام سبعة وأربعين من القرن الماضي كنقطة بداية لحياته المهنية، نجد أن مجمل سني مسيرته العلمية حتى اليوم تصل إلى سبعين عاماً. والحال كذلك فليس أفضل منه من يحدثنا عن الاتحاد السوفيتي وحياتة العلم والعلماء فيه؛ الأمر الذي فعله في كتابه هذا. يذكر في هذا السياق الحيل التي لجأ إليها العلماء السوفييت لنشر أعمالهم خارج البلاد دون الحصول على إذن السلطات، ويتطرق إلى عملية الدمج بين الأفكار والنظريات التي مارسها العلماء أثناء إعداد المواد للنشر وذلك درءاً من مواجهة السلطات. يعبر كلاين في كتابه بكل محطات القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، يتحدث عن قلة تمويل العلوم الروسية في التسعينيات واللامبالاة التي أحاطت بالبحوث العلمية في مطلع القرن الجديد.

يؤكد كلاين أن روسيا تمر اليوم بغروب شمس

وفي كتابه الأخير «معاناة العلم»، يُشمر كلاين عن ساعديه للتعليق على الحال الذي يعيشه العلم في بلاده روسيا، ويستفيض في رسم الأبعاد التي نشأت فيها العلوم الروسية وتعيين مآلاتها. وعلى الرغم من قدم المقالات التي تضمنها الكتاب (فالكتاب عبارة عن مقالات نشرها الكاتب في أوقات سابقة)، إلا أن قيمتها وأفكارها تلائم الوقت الراهن، بل إنها تكتسب أهمية بالغة في رؤية الراهن العلمي الروسي رؤية واقعية وقريبة. الجاذب في هذا الكتاب صوته المستقل الذي لا يذوب مع جوق السلطة ولا تغويه الكنيسة، ولا يضيع في معمعة الدراسات العلمية الزائفة، ولا يخضع لشؤون إدارة السلطات الأكاديمية.

جمّع المؤلف كتابه في اثني عشر عنواناً دالاً؛ وهي على التوالي: العمل والسلطة، هزيمة الأكاديمية، المال والمال والمال، نظام التعليم، هجرة الأدمغة، العلم والدين، العلم والمطبوعات، العلوم والجمهور، المنظور التاريخي، الأخلاق والعلم، العرق، المسائل الشخصية.

ومن خلال إلقاء نظرة سريعة على العناوين، يتبدى لنا المغزى الذي يرومه الكاتب. سوى ذلك، فالمؤلف ليس بوارد نثر الشكاوى أو



النزعة هناك، نجدها تنمو في بعض دول المجال السوفيتي السابق. يكتب عن ذلك: «تصدر في أوكرانيا مجلة «علم الآثار» باللغة الأوكرانية، وهي تخلو من المشاركين الروس. فكم هو عدد العلماء الآثار الأوكرانيين الذين تنشر لهم المجلة؟ (...) إن جميع الأوكرانيين يعرفون اللغة الروسية ناهيك عن العلماء، بيد أنه لا وجود لمنشورة علمية باللغة الروسية. يحدث هذا من قبيل التفاخر القومي وليس إلا، متناسين أن من مصلحة علماء الآثار الأوكرانيين قبل غيرهم انتشار منجزاتهم في أوسع نطاق وتعريف جيرانهم بها. يقولون إن من يريد معرفة إنجازاتهم فعليه أن يتعلم الأوكرانية، وهذا أمر سخيف» (ص: ٢٢٧).

ويشير المؤلف إلى قضايا مختلفة تدور في فلك علم الآثار؛ منها ما يُسمى بعلم الآثار الزائف، الذي لا يهدف إلا لتسليّة الجمهور وخلق الخرافات الجميلة لهم. يقول عن ذلك: «وهكذا في عام ٢٠٠٤ نظم متحف الأرميتاج الروسي معرضاً كبيراً بعنوان «ذهب المستنقعات»، جُمعت فيه معروضات أنتجها خيال الفنانين المعاصرين. وقد مثل المعرض قبيلة وهمية قديمة من الأقزام كانت تسكن المستنقعات المحلية، وضم تماثيلهم وحليهم الذهبية وخرائط مستوطناتهم وحتى يوميات علماء الآثار الذين كشفوا عنها وحضروها، حضروها في مخيلتهم فقط (...) ومن العجيب أن يقوم المعرض بنشر كتاب فاخر ذو رسوم توضيحية ملونة وبورق مصقول، وهذا النوع من النشر لا تعرفه المنشورات العلمية الحقيقية إلا فيما ندر» (ص: ٣٩٩-٤٠٠).

وعلى الرغم من الإطار العلمي للكتاب، إلا أنه يتمتع بسهولة قراءته ورشاقة تقسيمه؛ حيث توزع على فصول قصيرة، ولغة أقرب إلى الأسلوب الصحفي، إلى جانب اشتماله على العديد من الذكريات الحية للمؤلف ومراسلاته مع قرائه المهتمين.

- الكتاب: «معاناة العلم.. العالم والسلطة، العالم والمال، العالم والأخلاق».

- المؤلف: ليو كلاين.

- الناشر: دار الاستعراض الأدبي الجديد،

موسكو ٢٠١٧، باللغة الروسية.

- عدد الصفحات: ٥٧٦ صفحة.

* مستعربة وأكاديمية روسية



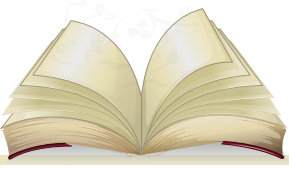
على الأسئلة. وعندما بدأ التدريس عام ١٩٦٤، لم يرغب كلاين في تكرار الحصص الدراسية التقليدية وأثر عليها نهجا مختلفا قوامه المشاركة الفعالة في العملية التدريسية. يعتقد كلاين أنه لا حاجة للمدرس من إقامة الورش إن كان لا يملك ما يقوله وإن كان اعتماده يرتكز على المنهج الدراسي وحده. فجانبا المعرفة التي يتحلى به المدرس، عليه أيضا أن يضع نصب عينيه الفكرة والهدف من تنظيم الورش العلمية. وقد نظم كلاين ورشة عمل لا يطلب من الطلبة فيها قراءة البحوث الجاهزة أو تكرار التجارب المعروفة مهما ارتفعت قيمتها، وإنما عرض أفكار جديدة وتنميتها في سياق حوارى وبحث جماعي ومن ثم نشرها بصيغة مقال في مجلة علمية. وفي الوقت نفسه، جذب كلاين للمشاركة في ورشته طلابا من مختلف السنوات الدراسية ومن جامعات أخرى كما أقدم على دعوة باحثين معروفين للمشاركة في الورشة. ومن المعروف أن هذه الورشة أسفرت عن سلسلة «قضايا علم الآثار» التي استمرت جامعة سانت بطرسبرج في إصدارها لسنوات متعاقبة.

لم يستطع المؤلف إلا أن يتطرق إلى علوم الآثار نفسها، فاستعرض العقبات الرئيسية التي تعترضها، والتي يجدها أولا، وقبل كل شيء، في الحركة المضادة للعولمة في العلم. يلاحظ أنه، وإذ تتلاشى النزعة القومية في العلم بين علماء اسبانيا والدول الاسكندنافية، الذين عارضوا فيما سبق جامعة كامبريدج، وهي قلعة علم الآثار، حين منعهم من نشر أعمالهم بلغتهم الأم واشترطت أن تنشر باللغة الإنجليزية وحدها؛ إذ تتلاشى تلك

يكون العالم يعمل في مجال الآثار (كما هي الحال معه) فكل شيء مناط عليه، وعليه أن يدبر نفسه في كل ما يتطلبه العمل كأن يقوم بغسل الشظايا الأثرية بنفسه. ولتقريب الصورة أكثر وتبسيط الضوء على التغيرات التي طرأت على الوضع العلمي في روسيا خلال القرن الماضي يقول المؤلف: «عشية الحرب العالمية الأولى كان عدد الطلاب في روسيا يزيد بثلاثة أضعاف ونصف الضعف عن مثيله في فرنسا، وكانت تكلفة التعليم أقل بعشرين مرة منه في الولايات المتحدة وإنجلترا (...) قبل الثورة الاشتراكية عام ١٩١٧م، كان العامل الماهر في روسيا يعيل من أجره أفراد أسرته، أما المدرس فكان راتبه أكثر من ذلك بخمس عشرة مرة. وفي نهاية العشرينيات، أصبح راتب المدرس أعلى من راتب العامل الماهر بأكثر من أربعة أضعاف. اليوم لا يستطيع العالم العيش إن لم تكن زوجته تعمل أيضا، كما أن راتب الأستاذ أقل من راتب العامل» (ص: ٤٣).

ويستمر المؤلف في كشف المناطق القبيحة في المجتمع العلمي الروسي الراهن، وفي طبيعتها تلك المتعلقة بنشر المقالات العلمية (التأليف المشترك الزائف بين الباحث ورؤسائه في العمل، وورش كتابة الأطروحات، والانتحال... وغيرها)، كما يتأمل في استحالة انتشار المعارف العلمية في ظل تمنع الحكومة عن دعم العلوم مما يؤدي إلى ازدياد حجم، ما يسميه كلاين: النتاج العلمي غير المرئي، أي الكتب غير المقروءة والخامدة في المستودعات فيما القراء والباحثون لا يعرفون سبيلا للوصول إليها. وحسب كلاين، فإن هذه القضية تكتسب أهمية كبيرة وذلك في ضوء انتشار النظريات شبه العلمية والزائفة ونمو شعبيتها، وبرأيه قد يسفر ذلك عن الأمية التاريخية التي من شأنها الترويج للنزعة القومية ومعاداة السامية وغيرها من المذاهب الخطيرة، في حين أن الوقاية الوحيدة منها تكمن في رعاية وتشجيع العلم الحقيقي.

يقدم كلاين لقارئه ملامح من خبرته المتراكمة في مجال التدريس ويشرح أفكاره عن منهجية تنظيم وتنفيذ ورش العمل. فما الذي يجعل من ورشة العمل التدريسية ناجحة؟ يتذكر كلاين سنوات دراسته الجامعية والسأم الذي كان يعيش على المحاضرات ويحيط بالطلاب، فيفضل الطالب منهم الاختباء خلف هرم من الكتب على أن يتفاعل مع المدرس، ويجيب عن الأسئلة المطروحة. وكيف كانت الأوراق البحثية عن مختلف المواضيع توزع مسبقا، وما على الطالب بعدها سوى التظاهر بالمعرفة والرد



«العصا الغليظة: حدود القوة الناعمة وضرورة القوة العسكرية».. لإليوت كوهين

محمد السماك *

تزامن صدور هذا الكتاب عن استراتيجية القوة العسكرية في السياسة الأمريكية الخارجية مع صدور كتاب ثانٍ مؤلف آخر يقدم دولة لاوس نموذجاَ لممارسة هذه الاستراتيجية . واسم الكتاب هو «المكان العظيم للحرب: أميركا في لاوس وولادة المخابرات العسكرية»، ومؤلف الكتاب هو المؤرخ جوشوا كيرلنشيك. والكتاب الذي يقع في ٣٢٣ صفحة هو من منشورات سايمون وشوستر في الولايات المتحدة . يتكامل الكتابان في معالجة موضوع دور القوة العسكرية في السياسة الخارجية الأمريكية . ولكن قبل عرض هذا التكامل، من المهم نقل الصورة التالية على لسان الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما نفسه. ففي شهر سبتمبر - أيلول ٢٠١٦، أي قبل نهاية ولايته الرئاسية بشهرين تقريبا، زار الرئيس الأميركي مدينة فينتيان عاصمة لاوس، وألقى هناك خطاباً -اعترافياً- قال فيه ما ترجمته حرفياً : «بين عامي ١٩٦٣ و ١٩٧٤، أقلت الولايات المتحدة على هذه الدولة - لاوس- مليوني طن من المتفجرات. وهذه الكمية هي أكبر مما ألقته الولايات المتحدة على اليابان وألمانيا مجتمعتين خلال الحرب العالمية الثانية.

الوحيد لمكافحة الإرهاب الدولي بطريقة صحيحة وسليمة هو باستخدام القوة من البر والجو . ويتساءل: تصوروا كم كانت ليبيا ستكون مستقرة الآن لو أن الولايات المتحدة وحلفاءها أرسلوا قوات برية مباشرة بعد سقوط الرئيس السابق معمر القذافي!

ويطرح المؤلف سيناريوهات حول قضايا بالغة الأهمية والخطورة، منها :

- ماذا إذا وقع خطأ صدام عسكري نووي بين الهند والباكستان؟

- أو بين إيران وإسرائيل؟

- أو بين كوريا الشمالية والجنوبية؟

- أو حتى بين الصين والولايات المتحدة؟

ويقول إن المخاطر الكبيرة المترتبة على أي من هذه الاحتمالات، توحى بأن حدوثها هو أمر مستحيل. ويضيف إلى ذلك قوله:

ولكن الاعتقاد بصحة ذلك هو كالاعتقاد بأن أصحاب القرار في هذا الشأن ليسوا بشراً خطاءين .. وبالفعل أتم تلقي القنابل النووية في نهاية الحرب العالمية الثانية على هيروشيما وناجازاكي في اليابان؟

ويلاحظ المؤلف الدكتور كوهين أن جميع مرشحي الرئاسة الأميركية كانوا ينظرون إلى مسألة الأمن القومي لدى دخولهم البيت الأبيض من منظور مختلف عن

فإن الولايات المتحدة تجد نفسها مضطرة أو مدعوة لاستخدام القوة العسكرية خلال العقود الأولى من القرن الواحد والعشرين في مواقع متعددة من العالم، وبدرجات متفاوتة من القوة .

ويضع المؤلف لائحة باهتمامات الولايات المتحدة الخارجية، تقع الصين في رأس هذه الاهتمامات. ويقول إن المبادرات التي قام بها الأسطول الصيني البحري في بحر الصين الجنوبي وما ترتب عليها من اضطرابات مع دول الجوار (كوريا الجنوبية واليابان تحديداً) من شأنه أن يعيد رسم النظام العالمي .

ويسلط الضوء كذلك على مبادرات الاتحاد الروسي خاصة في ضوء تنامي قوى سياسية أوروبية جديدة ترفع شعارات وطنية (لا اتحادية) وتدعو إلى أنظمة وطنية وقومية منغلقة ومتشددة في انغلاقها على الذات .

ويقول المؤلف أيضاً إنه من دون الوحدة الأوروبية فإن حلف شمال الأطلسي سوف يتعرض للشلل. ويضيف المؤلف أن هذا هو بالتحديد ما يريده أو ما يؤمن بصوابيته الرئيس الأميركي الجديد دونالد ترامب !!

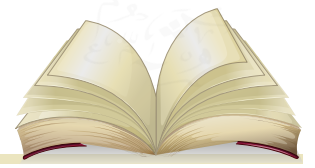
ويتحدث الكتاب عن دور العصا الغليظة في مكافحة الإرهاب . ويقول إن الطريق

وقال الرئيس أوباما أيضاً: «إن هذا الأمر يجعل من لاوس أكثر دولة تعرضت للقصف في التاريخ». وقد اعترف الرئيس أيضاً «بأن ضحايا القصف لا يزالون يتساقطون حتى اليوم رغم مرور أربعة عقود على إنهاء الحرب هناك، وذلك لأن ثمة قنابل لم تنفجر في حينه، إلا أنها تنفجر من وقت لآخر تحت أقدام الأبرياء فتقتل وتشوه الكثيرين منهم في كل عام» . ولذلك تعهد بأن يرفع من قيمة التمويل الأميركي لإزالة هذه القنابل والألغام .. ولكن ولايته انتهت قبل أن يتمكن من الوفاء بوعده. ولقد تبوأ الرئاسة في البيت الأبيض رئيس جديد هو دونالد ترامب الذي تصفه الصحافة الأميركية بأنه «أمي في السياسة الخارجية».

من هنا تأتي أهمية كتاب «العصا الغليظة»، فالعصا عندما تكون بيد «أمي في السياسة الخارجية»، وعندما تكون عصا غليظة جداً، فإن خطرها يصبح خطيراً جداً أيضاً .

يلخص الغلاف مضمون الكتاب، وهو عبارة عن صورة حدائثي جندي فوق أرض موحلة .

ويقول المؤلف إنه في عالم تتكاثر فيه الأنظمة غير العقلانية، والثورات الدينية، والتجسس الإلكتروني، والتنافس المتفعل،



تتوافق مع برنامج التضليل الذي أعدته المخابرات. أقسم فيه اليمين على أنه يقول كل الحقيقة وبكل شفافية عن أوضاع الحرب. ولكنه في الواقع لم يقل سوى ما أعدته له المخابرات من تقارير لا تمت إلى حقيقة المجازر البشرية التي كانت تتوالى بصورة شبه يومية في لاوس .

لم يقل للكونغرس مثلاً ما نقله المؤلف عن وثائق سرية رسمية تتحدث مثلاً عن أحد القادة العسكريين الأميركيين الجنرال توني بو، وكان سكيراً مدمناً على الخمر. وتروي هذه الوثائق بالصور كيف أنه كان يتلذذ بقتل الأسرى اللاوسيين، وكيف كان يقطع رؤوسهم ويلحقها على الأعمدة في ساحات القرى التي كانت تحتلها القوات الأميركية، لإرهاب السكان.

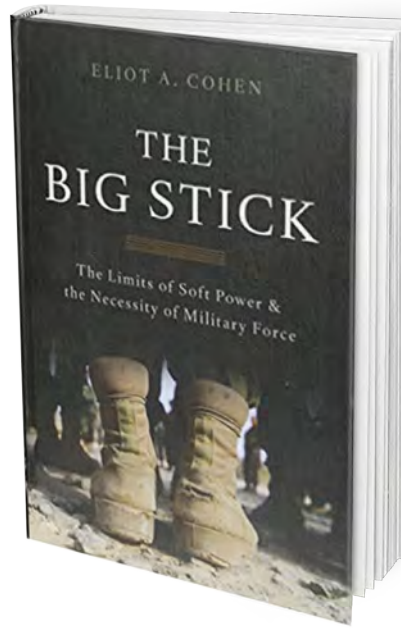
ويشير المؤلف إلى أن دور المخابرات في إخفاء هذه الجرائم لم يتوقف. فهو مستمر حتى اليوم في أفغانستان للتغطية مثلاً على المجازر التي تسبب بها الطائرات القاذفة من دون طيار (درون) والتي أمر الرئيس السابق أوباما باستخدامها ضد حركة طالبان في كل من أفغانستان وباكستان، وكذلك في اليمن .

يعتبر مؤلف كتاب «العصا الغليظة» اليوت كوهين أحد كبار المؤرخين العسكريين في الولايات المتحدة. وكان مستشاراً لوزيرة الخارجية السابقة كونداليزا رايس .

أما مؤلف كتاب «الموقع العظيم للحرب» جوشوا كيرلنشيك فهو خبير في شؤون جنوب شرق آسيا، وعضو في مجلس العلاقات الخارجية في الولايات المتحدة . ولذلك فإن كتابيهما عن القوة العسكرية الأميركية واستخداماتها، يتمتعان بصدقية عالية، ليس في الدوائر السياسية الأميركية فقط، ولكن في الأوساط الجامعية والأكاديمية المعنية بدراسة العلاقات الدولية .

- الكتاب: «العصا الغليظة: حدود القوة الناعمة وضرورة القوة العسكرية».
- المؤلف: إليوت كوهين.
- الناشر: باسيك بوكس، 2017م.
- عدد الصفحات: 285 صفحة.

* مفكر لبناني متخصص في دراسات العلوم والسياسة والفكر الإسلامي



الشيوعية خطراً عليها وعلى حلفائها. وكانت تعتقد أن القوة العسكرية قادرة وحدها على القضاء عليها ومنع انتشارها. غير أن ما حدث بعد ذلك في فيتنام أثبت عدم صحة هذه النظرية. مع ذلك يؤكد المؤلف الدكتور كيرلنشيك أن نجاح وكالة المخابرات المركزية في التعمية على التورط العسكري الأميركي في لاوس من حيث الحجم تدميراً وتكاليف مالية وخسائر بشرية، جعل من تلك الدولة الآسيوية المكان العظيم للحرب .

ولما فشلت الوكالة في القيام بالدور ذاته أثناء الحرب في فيتنام، قامت المظاهرات الشعبية المعارضة للحرب . وكان محمد علي كلاي (بطل الملاكمة العالمي) أحد أبطال مقاطعة الحرب ورفض التجنيد العسكري لأسباب أخلاقية دينية .

يروى الكتاب كيف أن جهاز المخابرات الأميركية أقام في ذلك الوقت موقفاً مزوراً في لاوس شبيه بالموقع العسكري لقائد قوات التحرير اللاوسية الجنرال فانغ باو. ويقول إن القيادة العسكرية الأميركية كانت تدعو الإعلاميين ورجال الكونغرس لزيارة الموقع باعتبار أنه الموقع الحقيقي وأنه أصبح بيد القوات الأميركية. وفي ذلك الموقع كانت تقدم للزائرين وثائق مزورة أيضاً تؤكد على هزيمة اللاوسيين التي لم تحدث أبداً .

وفي عام 1971 قدم السفير الأميركي لدى لاوس بيل سوليفين شهادة أمام الكونغرس

المنظار الذي كانوا يستخدمونه أثناء حملاتهم الانتخابية. ويعود السبب في ذلك إلى المعلومات التي تقدمها وكالة المخابرات المركزية (سي.آي.إيه) إلى الرئيس - وليس إلى المرشح للرئاسة- عن حقيقة أوضاع العالم وتأثيراتها على الأمن الأميركي وعلى المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة. ولكن المؤلف يلاحظ بقلق أن الرئيس ترامب لا يستمع إلى جهاز المخابرات .. أو أنه يقلل من شأن المعلومات التي يقدمها الجهاز إليه لأنه لا يثق به أو برجاله المحترفين.

وفي هذه الحالة ماذا تكون النتيجة؟ نجد الجواب عن هذا السؤال في كتاب جوشوا كيرلنشيك «المكان العظيم للحرب» . فالمؤلف يروي حديثاً مسجلاً وموثقاً جرى بين الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون ووزير خارجيته هنري كيسنجر. يجري الحديث على النحو التالي :

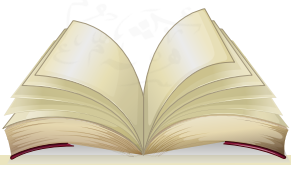
يسأل نيكسون: كم قتلنا من اللاوسيين؟ يرد كيسنجر: ما بين 10 و 15. وهو يعني ما بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً . إلا أن الرقم الحقيقي كما يذكر المؤلف هو 200 ألف. فقد أدت الحرب إلى قتل عُشر سكان لاوس .

ويقول المؤلف إنه خلال الفترة الأولى من رئاسته، طلب نيكسون رفع عدد عمليات القصف الجوي يومياً من 15 عملية في اليوم إلى 300 عملية. وقد أدى ذلك إلى تحويل لاوس إلى أرض محروقة وإلى جحيم حقيقي .

غير أن الأمر المثير في هذه العملية هو أنها بقيت بعيدة عن الإعلام وعن الرأي العام العالمي وحتى في الولايات المتحدة. وقد لعبت وكالة المخابرات كما يؤكد المؤلف الدور الأساس في إخفاء حقائق الفواجع الإنسانية التي كانت تحدث في لاوس في ذلك الوقت .

ويذكر المؤلف أن السبب في تلك الحرب على لاوس ربما يعود إلى تنبيه الجنرال داويت ايزنهاور إلى خلفه الرئيس جون كندي بأن لاوس تشكل غطاء «الزجاجة الشيوعية» في آسيا. فإذا تمكنت الشيوعية من الخروج من هذا العنق ومن تجاوزه، فإنها سوف تفيض وتنتشر في كل آسيا .

في ذلك الوقت كانت واشنطن تعتبر



«ما بعد بيكيتي.. الأجنحة الاقتصادية واللامساواة»

علي الرواحي *

يتناول هذا المؤلف الجماعي، وعلى مدى عشرين بحثاً تقريباً، كتاب الاقتصادي والمفكر الفرنسي توماس بيكيتي «رأس المال في القرن الحادي والعشرين»، والذي صدر بلغته الفرنسية الأصلية في العام ٢٠١٣ م، ثم سرعان ما تُرجم إلى الإنجليزية في العام ٢٠١٤ م، ثم تمت ترجمته إلى الكثير من اللغات العالمية المختلفة؛ حيث يتطرق هذا العمل «ما بعد بيكيتي» إلى الأثر الكبير الذي لعبه هذا العمل «رأس المال ٢١» من حيث الانتشار، والتأثير الكبير على الدراسات الاقتصادية اللاحقة، ذلك أن كتاب رأس المال ٢١ لم يتم استقباله كبقية الكتب الاقتصادية المملة والمعتادة، بل قُوبل بحفاوة واستقبال كبيرين، وهو ما جعل الفصل الأول من هذا العمل «ما بعد بيكيتي» يتحدث عن ظاهرة بيكيتي، كما سيتم توضيحها في سياق هذه القراءة، كما أن هذا العمل لم يقتصر في تحليلاته فقط على الأرقام والإحصائيات، بل استخدم إلى حد كبير العلوم الإنسانية في ختام نتائجها، وهو الرد الذي نجده مرفقاً في نهاية هذا العمل المعروف هنا من قبل مؤلف العمل توماس بيكيتي، وهو ما يجعلنا نتعرض في المقام الأول لما أسماه مترجم العمل إلى اللغة الإنجليزية «ظاهرة بيكيتي».

بين الإحصائيات الاقتصادية والعلوم الاجتماعية بشكل كبير؛ مما جعل الكتاب يجد هذا الصدى الكبير وغير المسبوق.

العهد الذهبي الجديد

وفي هذا الفصل، يتناول بول كروجمان -الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد في العام ٢٠٠٨ م- وهو يقصد بالعهد الذهبي الجديد أو بالعهد الذهبي الثاني تلك الفترة التي تزايدت فيها نسبة الأثرياء الذين دخلوا نسبة ١٪ من أغنياء العالم (ص: ٦٠)، ففي بداية القرن العشرين لم يكن من الممكن تعقب الدخل والثروة بشكل معمق على العصور السابقة وتحديدًا في القرن الثامن عشر إذا تحدثنا بشكل خاص عن بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، غير أن النتائج المتوفرة والإحصائيات الحالية تجعلنا نعيش في ثورة معلوماتية تتمكن من خلالها فهم وتحليل اللامساواة على المدى الطويل، وهو الذي قام بيكيتي وزملاؤه بتطبيقه في كتاب «رأس المال» على نسبة ١٪ من الأثرياء؛ ذلك أنه وفي فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى استقبلت هذه النسبة من الأثرياء ٥٪ من نسبة الدخل في أمريكا وبريطانيا؛ حيث إن هذه النسبة قد تراجعت بين الزيادة والنقصان في السنوات اللاحقة لغاية الثمانينات، وهو ما انعكس على النخبة الاقتصادية التي تغيرت كثيراً في الفترة الأخيرة.

وتكمن الفكرة المهمة والأساسية لكتاب رأس المال لبيكيتي -حسب كروجمان- وذلك لفهم اللامساواة في الدخل لا يكفي العودة للقرن الثامن عشر، بل ينبغي النظر إلى «الرأسمالية الموروثة» (ص: ٦١)، وهو ما يجعل الطبقة الاقتصادية العليا مسيطراً عليها من قبل السلالات الحاكمة وليس من قبل المهارات الفردية؛ الأمر الذي يجعل هذه الفكرة فارقة ومهمة بشكل كبير وهو ما يتوجب اختبارها ونقدها.

يطرح كروجمان تساؤلاً حول ما الذي نعرفه عن اللامساواة الاقتصادية؟ ومتى؟ ذلك أنه قبل الثورة التي توصل إليها بيكيتي لم تكن نعرف عن الدخل واللامساواة إلا من خلال الاستبيان العشوائي الذي عن طريقه يتم اختيار بعض الأسماء لملء هذه الأسئلة وتعبئتها؛ حيث إنه ومن خلال هذه الإجابات من الممكن تعقبها

آخر للمفكر الفرنسي بعد هذا الكتاب والمعنون باقتصاد اللامساواة.

وإضافة لذلك، نجد أن السياق السياسي والاجتماعي لحظة صدور هذا العمل، يعتبر عاملاً مهماً في انتشاره وذيوعه، وذلك تحديداً بعد الكساد الكبير ٢٠٠٧-٢٠٠٩ م؛ حيث إن هذا الحدث قد زعزع الثقة في عدم التشريع للسوق الحرة (ص: ٣٣)، وحول قدرة الاقتصاديين على فهم الأزمة الاقتصادية في النظام الرأسمالي، ففي العام ٢٠٠٨ م نجد أن الاقتصادي الفرنسي أوليفر بلانشارد الذي أصبح لاحقاً مديراً لصندوق النقد الدولي من العام ٢٠٠٨ م لغاية ٢٠١٥ م، الذي صرح بأن «دولة الاقتصاد الكبير في صحة جيدة» غير أنه وبعد عامين من هذا التصريح قال بأنه ينبغي التفكير من جديد في هذا النمط الاقتصادي وبشكل خاص بعد هذه الأزمة الاقتصادية، وهو ما هبأ المناخ بالإضافة للكثير من التصريحات المختلفة إلى الحديث عن اللامساواة في ظل هيمنة الليبرالية الجديدة من ١٩٨٠-٢٠٠٨ م والتي كانت تعتبر ولفترة طويلة من التابوهات أو المحرمات التي لا يمكن الحديث عنها.

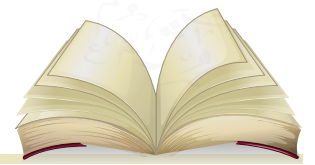
وفي الجانب الآخر، فإن الانتقادات الصحفية التي تم استقبال الكتاب بها وتحديداً في السوق الأمريكي، لفتت الانتباه له، ولموضوعه وأهمية الطرح الذي تضمنه هذا العمل؛ حيث نجد أن النقد الأول وربما الأهم لهذا العمل جاء عن طريق الاقتصادي الصربي الأصل والأمريكي الجنسية برانكو مالينوفيتش الذي اعتبر أن بيكيتي قد ذهب بعيداً في الحديث عن النظرية الرأسمالية.

غير أن هناك استقبالا آخر بعيداً عن الجانب الاقتصادي أو من خارج المختصين في المجال الاقتصادي، ذلك أنه في العام ٢٠١٢ م قام بيكيتي بعقد محاضرة في مركز هارفارد للدراسات الأوروبية، وفيها تحدث عن الخطوط العريضة لكتابه رأس المال الذي صدر لاحقاً، بينما أقام في العام ٢٠١٥ م بعد صدور الكتاب محاضرة في نفس المركز لم تتسع القاعات الكبيرة من الجمهور متعدد الاختصاصات والاهتمامات، وهو ما يعني أن المؤلف قد انتقل من الحديث الاقتصادي عن اللامساواة بالشكل الاقتصادي إلى الحديث بطريقة العلوم السياسية والآثار الاجتماعية للرأسمالية؛ حيث قام بيكيتي في عمله رأس المال بالمزاوجة

يتطرق جولد هامر في الفصل الأول -وهو مترجم كتاب بيكيتي من اللغة الفرنسية إلى اللغة الإنجليزية- للكثير من الإحصائيات والأرقام المختلفة في هذا الشأن، وهي التي جعلت بيكيتي يشبه الظاهرة، من حيث تأثير الكتاب الكبير على البحوث الاقتصادية، وعدد الترجمات المختلفة التي وصلت إلى ١٣ لغة (لحظة كتابة بحثه)؛ حيث تُرجم للعربية عن دار التنوير في نهاية عام ٢٠١٦ م، كما تم بيع ما يزيد عن مليوني نسخة من هذا العمل وهذا نادراً ما يحدث لعمل اقتصادي وأكاديمي فيه الكثير من الأرقام والجداول والإحصائيات والمعادلات المختلفة، حتى إن المؤلف قد تحول إلى ما يشبه «نجم الروك الاقتصادي» (ص: ٢٩)، فلقد تم استضافته في الكثير من القنوات الإذاعية والتلفزيونية، وأجريت معه الكثير من المقابلات الصحفية المختلفة، كما تم استضافته من قبل وزير الخزانة الأمريكي جاكوب ليو (٢٠١٣-٢٠١٧ م) وغيره من المسؤولين الآخرين.

كل هذا الاحتفاء وغيره الكثير الذي صاحب هذا العمل، جعل كاتب الفصل الأول ومترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية يطرح تساؤلات مختلفة حول هذا الأسباب التي حولت هذا العمل إلى ظاهرة غير مسبوقة، وربما لن تتكرر قريباً؛ حيث يتطرق في المقام الأول إلى التوقعات المختلفة لاستقبال هذا العمل، وثانياً إلى السياق السياسي والاجتماعي الذي تزامن مع الكساد الكبير والذي امتد من العام ٢٠٠٧ م-٢٠٠٩ م، وتأثير ذلك على استقبال الكتاب، كما يتتبع ثالثاً الانتقادات المبكرة لهذا العمل، في حين أنه يتطرق في السؤال الرابع إلى ردود الأفعال الأكاديمية من خارج المجال الاقتصادي، وفي الأخير وخامساً يقيم الردود السياسية على الكتاب وتحديدًا على العلاقة بين الديمقراطية والرأسمالية.

ففي مجال استقبال الكتاب، وهو موضوع السؤال الأول، نجد أن الناشر الإنجليزي للعمل -وهو محرر مطبوعات هارفارد- لم يكن يتوقع أن تتجاوز مبيعات هذا العمل ٢٠٠ ألف نسخة للثلاث أعوام القادمة (ص: ٣٠)، وذلك من استقراء تجارب سابقة له في النشر لدى جامعة برنستون أيضاً، فهذا العمل ظهر للإنجليزية متزامناً أو سابقاً على ظهوره باللغة الفرنسية، وهو ما ينطبق على كتاب



أن النخبة الاقتصادية لديها قوة سياسية، والمديرين الجدد كما هو في الشركات الكبيرة لديهم قوة اقتصادية (ص: 377)، وهذا يقودنا للحديث بشكل مختصر عن دور المؤسسات المختلفة في صناعة اللامساواة بين أفراد المجتمع بحسب الاختلافات الجندرية.

ومن الواضح -حسب الكاتبة- أننا أمام سيناريوهات محتملة لكل ذلك، فهناك السيناريو المتفائل (ص: 379) الذي يذهب إلى استمرارية توارث الثروات حسب النظام القديم كما هو معمول به في القرن الثامن عشر. فعلى المستوى التاريخي نجد أنه في الولايات المتحدة وإنجلترا تحت حكم القانون العام كانت النساء تحصل على حقوقها عند الزواج.

في حين يذهب السيناريو الثاني المتشائم إلى عكس ذلك؛ حيث يشير إلى عودة البطيركية أو الهرمية (ص: 381)، وذلك من خلال الأخذ بعين الاعتبار الهوية الجندرية في الحساب وبشكل خاص في المجال السياسي؛ فمن الملاحظ أن الرجال مؤخرًا وربما منذ فترة طويلة يحتلون أعلى المناصب في المجالات السياسية والاقتصادية العالمية، وفي هذا يرى بيكيتي أن الرجال قد قاموا بسن القوانين لتناسب مع هذا المسار.

ردود بيكيتي.. الاقتصاد والعلوم الإنسانية

وفي ختام هذا الجهد المليء بالتحليلات المختلفة لهذا العمل الاقتصادي والإنساني المهم جدًا، نطالع إضافة مهمة من المؤلف تتعلق بمراجعة العلاقة بين الاقتصاد والعلوم الإنسانية (ص: 43 وما بعدها)، ذلك أن الحدود بين هذين المجالين لم تعد واضحة المعالم في ظل التداخل الكبير بين العلوم؛ فهذا التداخل من شأنه أن يقوض هذه الفجوة بين العلوم المختلفة، فالكثير من التحليلات الاقتصادية بشكلها التقليدي لم تعد تغير من الواقع اليومي المعاش، بل أصبحت مزدحمة بالأرقام والأشكال البيانية... وغيرها، في حين أن التعاون والتداخل بين الاقتصاد والعلوم الإنسانية من الممكن أن يقوم بهذه العملية التي تعتبر تحولًا في البحوث الاقتصادية من جانب العلوم الإنسانية من الجانب الآخر.

ويقوم بيكيتي بتوضيح الأبعاد التاريخية المتعددة لرأس المال (ص: 56)، والقوة المرتبطة به، وذلك عن طريق مراجعته بين كارل ماركس وعالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو؛ فرأس المال بشكل عام مرتبط بالملكية والهيمنة وخلق علاقات قوة وهرمية اجتماعية بين الدخل من العمل، ذلك أن العلاقة بينهما مرتبطة إلى حد كبير، وبشكل خاص، في بعض المجتمعات؛ فالتقسيم الطبقي بين الأثرياء والطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة لا يستجيب أو يتفاعل مع جميع القضايا الاجتماعية بشكل واحد، بل يعتمد في ذلك على الكثير من العوامل والمحددات المختلفة.

- الكتاب: «ما بعد بيكيتي.. الأجندة الاقتصادية واللامساواة».

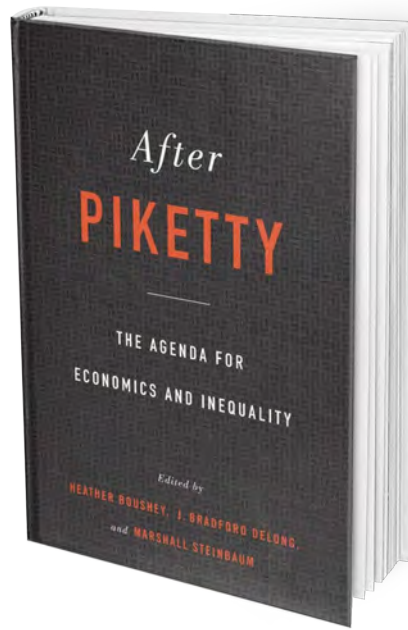
- المؤلف: مجموعة مؤلفين.

- الناشر: (Harvard University Press).

٢٠١٧، باللغة الإنجليزية.

- عدد الصفحات: ٦٧٨ صفحة.

* باحث وكاتب عماني



الكاتبة، فإن بيكيتي يذكر مرة واحدة فقط مفردة الإرث في حديثه عن الثروة الموروثة؛ ففي الجزء الأول من الكتاب يتطرق بيكيتي إلى أن الثروة تتكون من العمل، غير أنه مع مرور الوقت يشير بأننا نعيش في عصر الثروة «الرأسمالية الموروثة»، والتي جاءت من رأس المال وليس من العمل. وبرؤية متفائلة، تذهب بعض الآراء إلى أن النمو سيكون شاملًا بطبيعته متجاوبًا بذلك مع التحولات التي تعيشها المجتمعات والعلاقات بين الأفراد؛ ففي منتصف القرن العشرين ذهب الكثير من الاقتصاديين إلى أن النمو من شأنه تقليل الفجوة بين الأفراد (ص: 307)، وهو ما سيكون عاملاً مهماً وجيداً للجميع، حيث نجد في العام 1950م أن سايمون كينز قد ذهب في فكرته الأساسية والمتماكة -والتي أطلق عليها «مخطط كينز»- إلى أن اللامساواة ستقل وتتقلص بتطور الاقتصاد؛ وذلك عن طريق تزايد الفرص التعليمية وأساليب الزواج المختلفة، التي من شأنها تغيير خارطة الثروات وانعدام تركيزها في فئة معينة.

وفي مقابل هذه الرؤية المتفائلة، نجد أن هناك رؤية تذهب عكس ذلك تماماً، وهي التي ذهب إليها بيكيتي في «رأس المال 21» عن طريق جمع الكثير من البيانات والمعلومات التي تدل على أن تطور الاقتصاد ليس بالضرورة أن يكون منصفًا، بل من المحتمل إلى حد بعيد أن يكون سبباً رئيسياً من أسباب اللامساواة.

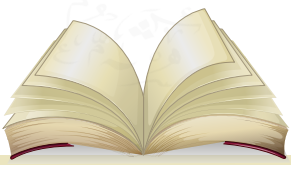
ولكن، ما هي أهمية المسألة الجندرية في هذا السياق؟ هل تؤثر هذه الفروقات على البيئة الاقتصادية واللامساواة؟ تأتي أهمية هذه المسألة من مجالين اثنين: ففي المجال الأول يتم توريث الثروات في المجتمع حسب الأعمار؛ مما يعني أن الأكبر هو الذي يستحوذ على هذه الأموال بشكل شرعي إلى أقرابه وبعض العلاقات الأسرية الأخرى، غير أنه مؤخرًا نرى أن بعض الآباء يتركون الوصايا متساوية لجميع الأطفال، حتى وإن لم يكن هناك ورثة كثير، لكنها في كل الأحوال تعيدنا إلى إنتاج القرن الثامن عشر بحسب بيكيتي، في حين أن المجال الثاني لأهمية المسألة الجندرية تأتي من ذلك التساؤل حول كيف يتصرف الأغنياء؟ ذلك أن النقطة الأساسية لصاحب رأس المال 21، تلخص في

في الإحصائيات الوطنية بشكل عام لتكوين صورة غير واضحة عن اللامساواة؛ حيث إن هذه الإحصائيات لم يكن من الممكن معالجتها أو تطبيقها دون وجود الأنظمة التكنولوجية المتقدمة، وهو موضوع الفصل القادم من هذا الكتاب.

وفي الفصل الثامن (ص: 170)، تتطرق لورا تايسون وميشيل سبنس إلى أثر التكنولوجيا في تفاقم الفجوة وصعود اللامساواة، خصوصاً في العقود الأخيرة والمستقبلية أيضاً؛ حيث تعتقدان بأن التكنولوجيا قد لعبت دوراً حاسماً في تفاقم هذه الفجوة بين نسبة 1% والأخرين خارج هذه النسبة؛ فالتكنولوجيا مساهم كبير جداً في الإنتاج والنمو الاقتصادي ذلك أنها إحدى سبل الرفاهية، غير أن الحواسيب الآلية والرقمية تعتبر عاملاً مهماً من عوامل اللامساواة، فهي تفضل أصحاب المهارات المتعددة دون أصحاب المهارات القليلة والمتواضعة؛ مما يسهم في زيادة العوائد لملك رأس المال على حساب العمال. يضع بيكيتي عمله (رأس المال 21) بمثابة نظرية في تاريخ توزيع الثروات والدخل، كما يركز بشكل كبير على كيفية مساهمة المؤسسات، والقوانين، والسلطة، والسياسات في اللامساواة، حيث إنه وبناء على الكثير من التحليلات المختلفة نجد أن نظريته تعتمد على معايير الإنتاج الوظيفية التي تقوم على رأس المال، العمال والتكنولوجيا (ص: 173). ففي المقام الأول نجد أن العائد على رأس المال يتزايد بشكل طبيعي مع نمو رأس المال الاقتصادي، وثانياً فإن ملك رأس المال وبالتالي توزيع رؤوس المال ستتركز بشكل كبير في أيدي فئة معينة. وهو ما يعني أن النمو يتزايد مع هذه الفئة؛ وبالتالي تتزايد اللامساواة؛ الأمر الذي يؤدي إلى أن أصحاب رؤوس الأموال يوفرون الأموال أكثر من العمال. فالتكنولوجيا تظهر في نظرية «رأس المال 21» بعدة طرق مختلفة؛ فهي تتضمن في عنصري الإنتاج الوظيفي؛ ذلك أنها وعندما لا تتغير فإن رأس المال يتزايد، كما أن العمال في ازدياد في الجانب الآخر، وهو الذي يقلص العوائد المالية. في جزئية هامة من هذا الفصل (ص: 187) يتم الحديث عن: التكنولوجيا، والعولة وتوزيع الثروات؛ حيث إن معظم التحليلات تذهب إلى أن توزيع الثروة والدخل في الدول النامية خلال العقود الثلاثة الأخيرة قد مر بتحويلات دراماتيكية شديدة للغاية، أثرت من خلالها في هيكل الاقتصاد وتكوين سوق العمل، وذلك من خلال العلاقة الوثيقة بين القوة التكنولوجية والسوق العالمية؛ فهذه الثورة الرقمية بما تعنيه من عولة قد ساعدت على تعميق توزيع الثورات والمداخل أيضاً.

تأويل نسوي للرأسمالية الموروثة

وفي الفصل الخامس عشر (ص: 355)، تتناول هيدر بوشي وهي عالمة اقتصاد أمريكية، اللامساواة من منظور نسوي مختلف، بأبعاد مغايرة، فهي تستلهم رؤية بيكيتي القائلة بأننا نعيش في عصر «الرأسمالية الموروثة»، محاولة أن تضئ لنا هذا المسار من وجهة نظر نسوية؛ فهي تمنحنا وجهة نظر مختلفة، ومتفائلة، حول الإنجازات النسوية في الاقتصاد وضرورة المساواة الطبيعية بين الجنسين، بالرغم من تصاعد اللامساواة؛ الأمر الذي لا يعني التقليل من حقوق النساء الاقتصادية والسياسية. ففي الجانب الأول، فإن الدراسات الأكاديمية تذهب بعيداً للأمام لفهم دور العديد من المؤسسات الاجتماعية والسياسية في الجانب الاقتصادي. وبالعودة لكتاب «رأس المال 21»، وحسب



«دليل أكسفورد.. المعِين على الفلسفة الإسلامية»

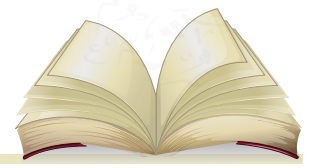
محمد الشيخ *

ظلمت الفلسفة العربية الإسلامية من طرف مجايلينا، كما لا تزال تُظلم من لدن مجايلينا اليوم. ظلمت من طرف مجايلينا؛ لأن قطاع المفكرين الإسلامي المحافظ حاصر فلاسفة العرب والإسلام بالتبديع والتفسيق، بله التكفير. فكان أن صدرت فتاوى شهيرة في تحريم الاشتغال بالفلسفة والمنطق، وكان أن أُطلقت مراسيم عدة في منع الاشتغال بكتب الأقدمين، وكان أن أُحرقت الكثير من كتب الفلاسفة. وظلمت الفلسفة الإسلامية من لدن مجايلينا؛ لأن الكثير من مؤرخي الفلسفة العربية الإسلامية اختزلوا جهود حوالي إثني عشر قرناً من العطاء الفلسفي العربي الموصول، وحوالي مائتي فيلسوف مسلم وما ينيف، في ما يمكن تسميته «كتب الصحاح»: كتب ثلاثة من مشرقي فلاسفة الإسلام (الكندي والفارابي وابن سينا) وكتب ثلاثة من مغربيهم (ابن باجه وابن طفيل وابن رشد). وَلَكَّ ما شئت أن تُحدِّث الناس عن ابن عدي وعن أبي الحسن العامري وعن ابن كمونة، وعن عشرات من أمثالهم من متوسطي مشاهير هذه الفلسفة، كما لك أن تُحدِّثهم عن شهيد بن الحسين وعن النوشجاني وعن نظيف الرومي، وعن مائة من أمثالهم من مغموري هذه الفلسفة، فلا تكاد تجد من سمع بهم، ولا حتى من سمع بمن سمع بهم.

أعمال الفلسفة الإسلامية المتأخرة. أكثر من هذا، وهذه هي الجهة الأخرى، اعتقد البعض أنه وتحت ضربات النزعة السنية الكلامية مات التقليد الفلسفي في العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الميلادي. وكان أن انتقلت الفلسفة الإسلامية -وياً للحظ العجيب!- إلى الغرب. والحق أن لهذه الصورة المختزلة عن الفلسفة الإسلامية تاريخاً. هذه أهم أعلامه من الباحثين في تاريخ هذه الفلسفة مستعربين وعرباً: دي بور (1902)، أوليري (1922)، مذكور (1934)، الفاخوري والجر (1957)، واط (1962)، ثم نسج الباقي على منوالهم. وأمَّا الرواد الذي ساءلوا هذا الأنموذج الاختزالي، فقد كانوا بدءاً من الستينيات من القرن الماضي هم: هنري كوربان، سيد حسين نصر، نيكولا ريشر. تأثر الأولان بالتقليد الفارسي، فأظهرا استمرار التقليد الفلسفي الإسلامي في الأوساط الشيعية إلى حدود الحقبة الحديثة. وقد ركزا على بزوغ التيار

أن مجموع الباحثين الغربيين في القرن العشرين ركزوا على الفترة الممتدة ما بين القرن 9 الميلادي (القرن الثالث الهجري) (نشأة الفلسفة الإسلامية) والقرن 12 الميلادي (القرن السادس الهجري) (أقول الفلسفة الإسلامية المزعوم). هذا بينما من باب إنصاف الفلسفة الإسلامية القول بأنها ما فتئت تشكل جهداً تواصل فيما وراء القرن السادس الميلادي، وأن لكل قرن من قرون الفلسفة الإسلامية المديدة أهميته التي لا يمكن أن تنكر بأي حال. ومن هنا، سعى الكتاب إلى إعادة النظر في «المروية الراسخة» عن الفلسفة الإسلامية التي تجعل منها، من جهة، مجرد «حافضة» و«حاشية» على التراث الإغريقي خلال «عهد الظلام» الأوروبية، ثم كان أن انتقل هذا التراث انتقاله إلى الغرب اللاتيني خلال القرنين 12 و13 الميلاديين؛ مما لا يجعل من قيمة لهذه الفلسفة اللهم إلا في حقبة معينة، بينما يتم إهمال تواصل صدور

والحال أن هذا الكتاب -دليل أكسفورد للفلسفة الإسلامية (2017)- جاء لكي يصحح هذه الرؤية المختزلة إلى تاريخ الفلسفة الإسلامية. وما كان هو الكتاب الأول في العقد الأخير، وإنما هو الأهم والأوفى إلى حد اليوم. فقد ائتلف جمع من خيرة المختصين في الفلسفة العربية الإسلامية، غربيين وشرقيين، بغاية تصحيح مروية الفلسفة الإسلامية التي ما فتئت تنسرخ. ويشير جامعاً الكتاب -أستاذ العربية وتاريخ الفكر الإسلامي بجامعة هارفارد خالد الرويهد (لبناني الأصل)، وزابينه شميدته أستاذة تاريخ الفكر الإسلامي بجامعة برنستون (ألمانية). في مقدمتهما التي وضعاها للكتاب إلى أن دراسة الفلسفة الإسلامية قد دخلت حقبة جديدة ومثيرة في الآونة القليلة الماضية، بحيث أمست تشهد على حركة مراجعة جذرية ومساءلة نقدية للأنموذج المكرس عن الفلاسفة المسلمين وعن مروية مسار الفلسفة الإسلامية. ذلك



المعروفة (ق.9/ق.12)، وإنما يمنحون لكل قرن قيمته.

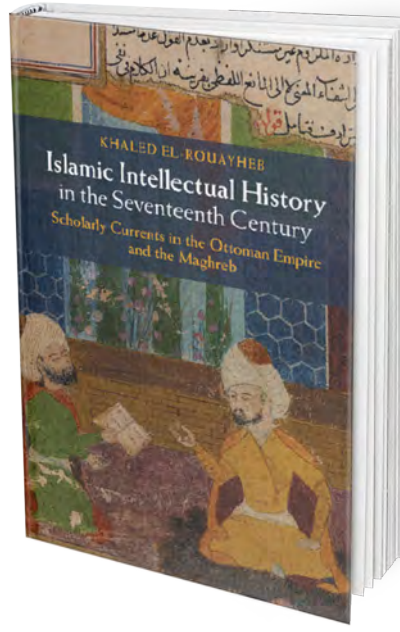
- يركز أصحاب الكتاب على عمل الفيلسوف وليس على حياته أو على موضوعات الفلسفة، مفضلين بذلك ما سموه «قوة العمق» على «سعة العرض».

وعلى جهة الإيجاب، اختيار أصحاب الكتاب «المدخل» الثلاثين التي وضعوها للكتاب للتدليل على عدم وجود قطيعة في مسار الفلسفة الإسلامية منذ بدايتها إلى الحقبة الحديثة، ولتركيز على أن النشاط الفلسفي، في القرون المتأخرة، ما كان مركونا في ركن معين من أرجاء العالم الإسلامي، وما كان معنيا بمسألة بعينها. ومن ثمة، لم يتم التركيز - في جديد الكتاب - على الحقبة

الصفوية أو القاجارية وحدهما، وإنما تم تنوع البلدان التي شهدت على نشاط فلسفي متأخر خارج عن الأنموذج المكرس: مصر، تركيا العثمانية، هند المغول. لا ولا هو تم التركيز على مبحثي «الميتافيزيقا» و«الأنطولوجيا» - على نحو ما فعل كوربان ونصر - وإنما عمد أصحاب الكتاب إلى تنوع المباحث لكي تشمل، فضلا عن الميتافيزيقا والأنطولوجيا، المنطق والفلسفة الطبيعية. وقد تم اختيار نموذجين من الفلسفة العربية الإسلامية في القرن العشرين: فيلسوف عراقي هو محمد باقر الصدر الذي حاول حل مشكلة الاستقرار كما طرحها الفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم، وفيلسوف مصري هو زكي نجيب محمود الذي حاول تبني فكر الوضعيين المناطقة. وذلك كله كان من أصحاب الكتاب بغاية إثبات أن الفلسفة الإسلامية ليست مجرد نزعة روحية لا صلة بها باهتمام الفلاسفة الغربيين التحليليين.

ويتكوّن الكتاب من ثلاثين «مدخلا»، فضلا عن تقديم كشف بأسماء الأعلام وبالاصطلاحات، وعن تعريف موجز بالمساهمين الذين بلغ عددهم 28 باحثا من مختلف البلدان والجامعات.

وتدوّر مدّاخل الكتاب الثلاثين على الكتب



وعلى مستوى النشر، بفضل جهود كوربان ونصر تم نشر أعمال ملا صدر الشيرازي (ت. 1045 هـ/1635 م) على أنه يمثل «ذروة» التقليد الفلسفي الإسلامي المتأخر. لكن أظهرت نشرات أحدث فلاسفة متأخرين فرسا نشطين كانوا ناقدين للملا صدرا، من أمثال رجب علي التبريزي (ت 1080 هـ) وأغا حسين خوانساري (ت 1243 هـ)، كما تم التنبيه على فلتات مهمة في مروية الفلسفة الإسلامية، كابن كمونة (ت. 683 هـ) وقطب الدين الشيرازي (ت. 711 هـ) وابن جمهور الاحسائي (ت 883 هـ) ونجم الدين التبريزي (ت 928 هـ)، فضلا عن أنه تمت مراجعة الأفكار المترسخة عن الشروح وشروح الشروح الذاتية إلى القول بأنها كانت عقيمة بعقم شديد، فكان أن أعيد الاعتبار إلى أهميتها وإلى أهمية منسوب النقد فيها (جلال الدين الدواني نموذجا).

ما التصور الجديد الذي يحمله الكتاب بين طياته؟

على جهة السلب، يختلف الجهد المبذول في الكتاب عن الجهود المبكرة في دراسة الفلسفة الإسلامية منذ المستشرق الهولندي دي بور (1902)، وذلك في أمرين:

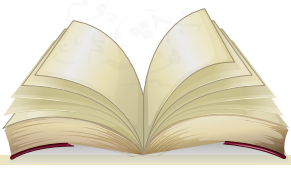
- لا يفاضل أصحاب هذا الكتاب بين القرون

الإشراقية المعادي للمشائية (السهورودي)، وعلى الفلسفة المتأخرة التوليفية والصوفية في القرن السابع عشر الميلادي. وذلك مثلما أن ريشر نبه إلى استمرار التقليد المنطقي في القرن الثالث عشر الميلادي بعد إعلان أفول الفلسفة الإسلامية المزعوم.

وكان أن ألهم هذا التقليد الجديد مؤلفي كتاب «المعين في الفلسفة العربية» الصادر عن كامبريدج عام 2005، بحيث أنهم - فضلا عن الحقبة القرن 12/9 م - أضافوا فصولا حول السهورودي والفلسفة الفارسية المتأخرة، كما طوروا في الفصل المتعلق بالمنطق حدوس ريشر فيما يخص القرن 13 الميلادي.

وعلى أنه في السنوات الأخيرة تم التنبيه إلى أن كوربان ونصر بالغا في تقدير التوليفية الأفلاطونية الصوفية الشيعية في القرون المتأخرة. وبهذا رُد الاعتبار إلى التقليد الفلسفي الطبيعي والمنطقي الذي لم يكن قد حظي بكبير اهتمام عند هذين الأخيرين. وذلك مثلما نبه بعض الباحثين إلى أن ثمة مروية أخرى للفلسفة الإسلامية خارج إطار التقليد الإشراقي الفارسي، حتى وإن لم يكن أعلن أبطال هذه المروية من فلاسفة ومناطق الإسلام في ما بعد القرن 6 الهجري عن جهودهم تحت مسمى «الفلسفة» مخافة أن توجه إليهم الزندقة.

وفضلا عن هذا، عاشت الفلسفة الإسلامية عيشتها ممتزجة بتشعب علم الكلام بمفاهيمها وطرائقها وإشكالاتها (مسألة المعرفة، الصلة بين الوجود والماهية، العلاقة بين الروح والجسد، المقولات الأرسطية، الحمل، الجهة، طبيعة الزمان والمكان، الطبيعيات والكونيات)، كما تم إدماج المنطق في التدريس بالمدارس الإسلامية في القرون المتأخرة. ونسي مقدا الكتاب الإشارة إلى جنوح التصوف نحو الأخذ بطرائق التفلسف؛ بحيث صرنا أمام التصوف الفلسفي، مثلما أمسينا أمام الكلام الفلسفي. وقد مارس الفلسفة الكثير ممن لم يتسموا «فلاسفة» في مناقشة قضايا معرفية وميتافيزيقية وطبيعية ومنطقية.



البغدادي وابن جبيرول وابن ميمون وابن باقودة من يهود فلاسفة الإسلام ونصرانيه.

وأخيراً.. إذا كان الكتاب قد حاول رفع الظلم الذي حدث عن الكثير من فلاسفة الإسلام بالأمس، فلربما يكون قد ظلم فلاسفة العرب اليوم بأن ذكر منهم فقط مُحَمَّد باقر الصدر وزكي نجيب محمود، ولربما نسي أنه أثمرت جهود المهتمين بالفلسفة في العالم العربي، منذ الثلث الأول من القرن العشرين إلى يومنا هذا، عن ظهور العديد من التيارات الفلسفية العربية ناهزت الأربعة عشر: من أقدمها: الرحمانية (زكي الدين الأرسوزي (١٨٩٩-١٩٦٨))، إلى أحدثها التداولية (طه عبد الرحمن (١٩٤٤)، مرورا بالمدرحية (أنطون سعادة ١٩٠٤-١٩٤٩)، وبالعقلانية المعتدلة (يوسف كرم ١٨٨٦-١٩٥٩)، وبالجانانية (عثمان أمين ١٩٠٥-١٩٧٨)، وبالشخصانية المتوسطة (رونيه حبشي ١٩١٥-٢٠٠٣)، وبالشخصانية الواقعية (محمد عزيز الحبابي ١٩٢٤-١٩٩٣)، وبالوجودية (عبد الرحمن بدوي ١٩١٧-٢٠٠٢)، وبالكيانية (شارل مالك ١٩٠٦-١٩٨٧)، وبالتعبيرية (نظمي لوقا ١٩٢٠-١٩٨٧)، وبالتاريخانية (عبد الله العروي-١٩٣٣)، وبالأصولية التأسيسية (عزت قرني-١٩٤٠)، وبالليبرالية التكافلية (ناصر-١٩٤٠).

- الكتاب: «دليل أكسفورد... المعين على الفلسفة الإسلامية».

- منسقا الكتاب: خالد الرويهب، وزايننه شميدتكه.

- الناشر: «Oxford University Press».

٢٠١٧، باللغة الإنجليزية.

- عدد الصفحات: ٧٠٠ صفحة.

* أكاديمي مغربي

وفي عرضهم لمداخلهم المتنوعة هذه التي بسطت بعض أهم كتب الفلسفة الإسلامية منذ بدايتها إلى اليوم - وإن لم تكن في نظرنا الأهم، وإن كان ما يشفع لهؤلاء الباحثين أن الكتب الأخرى في جزء كبير منها معروفة للقارئ المهتم - أظهر الباحثون التزاما بسنن البحث الأكاديمي، كما أبانوا عن الدور التنسيقي الذي قام به منسقا الكتاب، من حيث الإيحاء إلى كتبة المداخل باتباع خطة في العرض محكمة تقوم على عناصر ثلاثة أساسية - مع بعض التباينات بين الباحثين: بسط سياق العمل المتناول، والوقوف عند بنيته وأهم قضاياه، ورصد معالم تلقيه في زمنه وفي الأزمنة التي تليه.

كلُّ هذه المزايا تظهر أن هذا الكتاب كتابٌ لا غنى عنه لكل مهتم بالفلسفة الإسلامية، لدقة وعلمية المداخل، وللآفاق التي يفتحها لكل مهتم بهذا المجال. ولئن كان من أسف أبداه منسقا الكتاب، فإنما هو الأسف على أن العديد من الباحثين طلب منهم تغطية جوانب أخرى من الفلسفة الإسلامية، ولم يستجيبوا لأسباب شتى. ولهذا؛ غابت مداخل عن فيلسوف منطقي عظيم مثل سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢هـ) وعن فلاسفة أتراك كثر، وعن رجب تبريزي، وعن مهدي نراقي صاحب الكتاب العجيب «قرة العيون في الوجود والماهية»، حيث كان معاصرا لعصر الأنوار، وكان من الأفيد المقارنة بين ما كتبه داخل إطار الفلسفة الإسلامية والقضايا التي كان يفكر فيها فلاسفة التنوير زمنه، فضلا عن غياب مدخل عن أحمد الاحسائي.

أمَّا نحن، فنأسف أكثر على غياب عشرات الأسماء من كل قرن قرن، شأن أبي الفرج بن الطيب وأبي الحسن العامري وأبي سليمان السجستاني وأبي حيان التوحيدي وإخوان الصفا وبهمنيار وأبي البركات

والأسماء التالية: كتاب أتولوجيا «كتاب التفاحة» المنحول على أرسطو، ورسالة الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، وكتاب الطب الروحاني لأبي بكر بن زكريا الرازي، ومقطع من كتاب ضائع لابن مسرة الأندلسي: «توحيد الموقنين»، وكتاب الواحد والوحدة للفارابي، وكتاب تهذيب الأخلاق ليحيى بن عدي، وكتاب إلهيات شفا لابن سينا، وكتاب جامع الحكمتين لناصر خسرو (بالفارسية)، وكتاب تهافت الفلاسفة للغزالي، وكتاب مصارعة الفلاسفة للشهرستاني، وكتاب حي بن يقظان لابن طفيل، وكتاب التلوينات اللوحية والعرشية للسهروردي المقتول، وكتاب فصل المقال لابن رشد، وكتاب شرح الإشارات لفخر الدين الرازي، وكتاب شرح الإشارات لنصير الدين الطوسي، والرسالة الشمسية في المنطق للكاتب التحتاني، وكتاب المواقف في علم الكلام لعرض الدين الإيجي، وكتاب مجلي مرآة المنجي: جمع الجمع وجامع الجمع في الكلامين والحكمتين والتصوف لابن أبي جمهور الاحسائي، وكتاب حاشية على شرح القوشجي لتجريد الكلام لجلال الدين الدواني، وكتاب القبسات لمير داماد، وكتاب الشواهد الربوبية لملا صدرا الشيرازي، وكتاب سلم العلوم في المنطق لمحبه الله البهاري الهندي، وكتاب أحمد الملوي الشافعي الأزهرى أرجوزة في لوازم الشرطيات في المنطق وشرحها، وكتاب الهدية السعيدية في الحكمة الطبيعية لفضل الحق الحيدر آبادي، وكتاب غرر الفرائد لحاجي ملا هادي سبزواري، وكتاب مبادئ النقلة في حركة الأجزاء لعلي سداد باي (بالتركية)، وكتاب تجديد الفكر في الإسلام لمحمد إقبال (بالإنجليزية)، وكتاب الأسس المنطقية للاستقراء لمحمد باقر الصدر، وكتاب العلامة الطباطبائي نهاية الحكمة، وأخيرا كتاب نحو فلسفة علمية لزكي نجيب محمود.

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٣١.٢٤٦٤٤ - ٣٢.٢٤٦٤٤ +٩٦٨ ، فاكس : ٥٧٩٩.٢٤٦.٩٦٨

البريد الإلكتروني : www.altafahom.net - al.tafahoom@gmail.com - tasamoh@gmail.com